سلسلة
جبران
الصغرى
2006

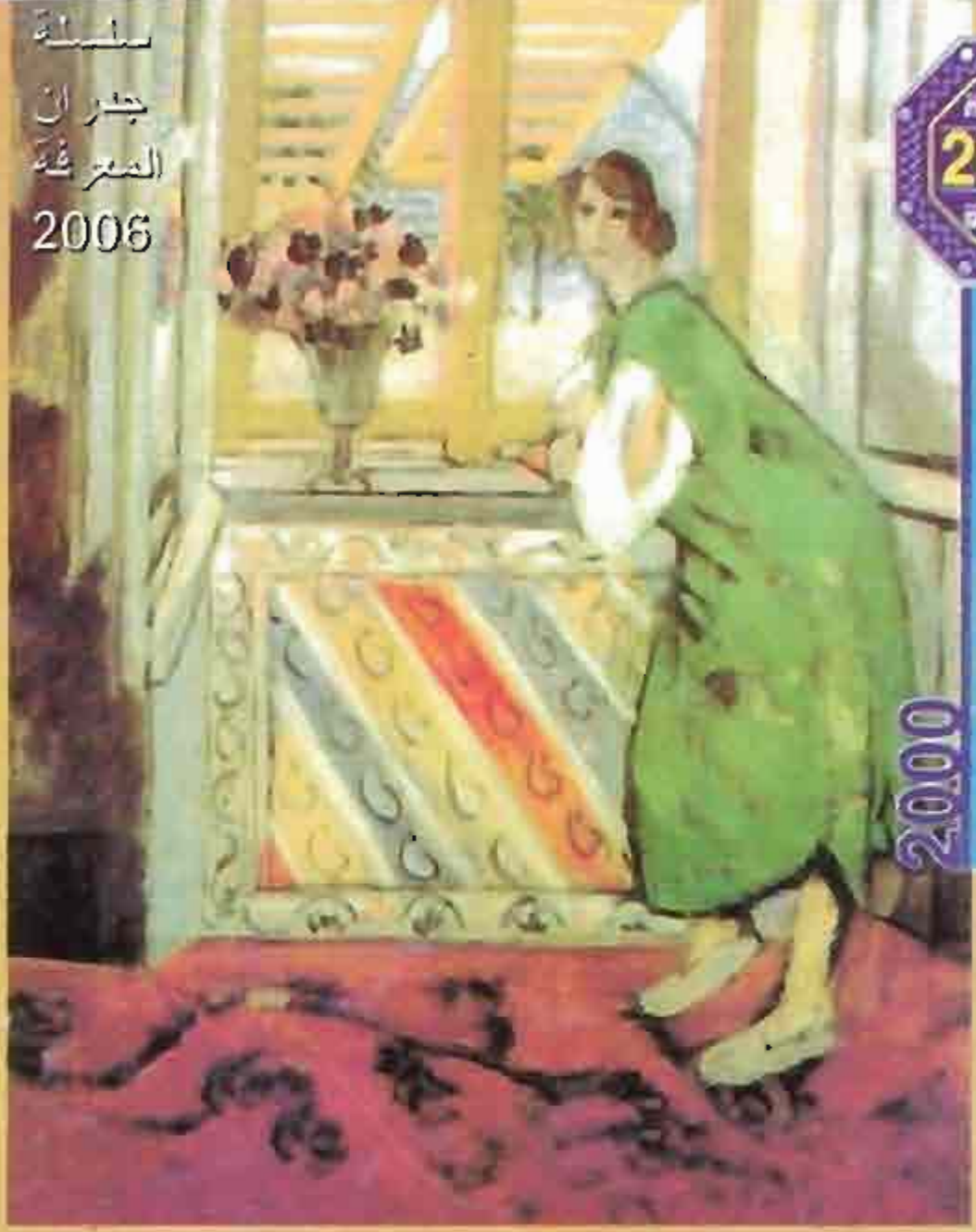

مكتبة
2000
الأسرة

مهرجان القراءة للجميع
2000

المختار من أجمل

القصص العالمية

اسم العمل الفنى : ذات الرداء الأخضر التقنيه : زيت على تول

مقاس العمل : ٦٥ × ٥٥ سم ملكية خاصة

هنرى ماتيس (١٨٦٩ - ١٩٥٤)

فنان، مصور وحفار فرنسى شديد التجديد، تتكون لوحاته من مساحات كبيرة، تعتمد الألوان الساطعة الزاهية التى يحوطها بلون قاتم، وهو ينظم العناصر المختلفة للتعبير عن المشاعر، ويربط بين الأشياء المتناثرة ليبرز أهمية كل تفصيلة. وقد صار زعيمًا لحركة الفوفية(*). اهتم بالحفر وتقنية الورق المقصوص، وهو أعظم مؤثر فى كثير من المصورين المحدثين. كما ساهم بجهد عظيم فى خلق لغة الشكل، بالإضافة إلى تجديده الملحوظ فى فن الإعلان.

محمود الهندى

تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com

المختار من أجمل
القصص العالمية

ترجمة

د. رشاد رشدى د. محمد القصاص

د. محمد عنانى د. ماهر شفيق فريد

إعداد وتحرير: د. سمير سرحان

د. محمد عنانى

تصديـــر

هذه مجموعة مختارة من أجمل القصص القـصيرة العالمية المترجمة إلى العربية بأقلام بعض أساتذة الأدب المتـخصصين الذين يمثلون جيلين ، الجيل الأول هو جيل الدكتور رشاد رشدى والدكتور محمد القصاص ، والجيـل الثانى هو الجـيل الذى ينتمى إليـه كاتبـا هذه السطور ، ونحن نهدى هذه المـجموعـة إلى ذكرى الجيل الأول - جـيـل الأساتـذة الذين أرسوا أسس النقـد الفنى للقصة القـصيرة الحـديثة والمعـاصرة ، وعلى رأســهم **رشاد رشدى** ، الذى كـان الرائد بلا جـدال فى هذا المجـال ، ولذلك فترجماته تحظى بنصيب الأسـد فى هذه المجموعة ، التى تتوقف فيها عند النصف الأول من القرن العشـرين ، وهى مرتبة ترتيبًا أقرب ما يكون إلى الترتيب الزمنى ، وهى منـوعة فى الأسلوب والمنهج والبناء ، كمـا تتميـز المجموعـة بتنوع اللغات التى ترجـمت منها أى الآداب التى تنتمى إليـها ، وسوف ننشر بإذن الله مجـموعات أخرى تمـثل الموجات الفنية التالية التى مر بها هذا الفن الأدبى الحديث ، عسى أن يجد القارى العربى فـيها الامتـداد الفنى لما وضعه الرواد من أسس ومـا أرسوه من

د. سمير سرحان

د. محمد عنانى

١ - فى ضوء القمر

جى دى موباسان

اكتسب الأب (مارينيان) بحق اسم «جندى الله» . كان قسا طويلاً نحيلاً متعصباً إلى حد ما . ولكنه كان عادلاً وذا نفس متسامية وكانت معتقداته ثابتة لا تتغير ولا تتبدل فه يعتقد أنه يفهم بالله فهماً واعياً كاملاً وأنه محيط بخططه ورغباته ونواياه .

وكان أحياناً يتساءل وهو يتمشى فى ممر حديقته فى البلدة الصغيرة التى يعمل فيها «لماذا فعل الله ذلك ؟» ويفكر جاهداً ويرضى عن نفسه فى أغلب الأحيان إذ يجد الجواب . ولم يكن الأب «مارينيان» من ذلك النوع من الرجال الذى يهمس فى خشوع . «إن سبلك ياربى أعظم من أن تدركها مدارك الرجال» بل كان يقول «أنا خادم الله وعلى أن أعرف السبب فى أفعاله أو أن أتبين السبب إن لم أعرفه » .

وخيل إليه أن كل شئ فى الطبيعة قد خلق بمنطق مطلق جدير بالإعجاب ، أن هناك دائماً توازناً بين الأشياء ومسبباتها ، فالشروق وجد

ليبعث البهجة فى نفس الإنسان وهو يستيقظ ، والنهار وجد لينضج المحصيل . والأمطار لترويها ، والأمسيات ليستعد الإنسان للنوم والليل الحانك للنوم . والفصول الأربع تتفق تماماً وحاجيات الزراعة . وكان من المستحيل أن يداخل الشك الأب «مارينيان» فى أن الطبيعة لا هدف لها . وأن كل كائن حى هو الذى يكيف نفسه وفقاً للظروف القاسية ، للفصول والأجواء والمادة ذاتها .

ولكنه كان يكره النساء . كان يكرهن من أعماقه ، ويحتقرهن بالغريزة ، وكان دائماً يردد قول المسيح «مالى ولك يا امرأة» وكان يضيف قائلاً إن الإنسان يستطيع القول إن الله ذاته غير راض عن المرأة التى خلقها. وكانت المرأة بالنسبة إليه هى الغاوية التى أغوت الإنسان الأول ومازالت تزاول نشاطها الملعون ، وهى المخلوق الضعيف الخطير الذى يسبب قلقاً خفياً . وكان يكره روحها المتعطشة إلى الحب أكثر مما يكره جمالها المسموم . وكثيراً ما شعر بحنان النساء يداهمه . فيضيق بذلك الحب الذى ينتفض دائماً أبداً فى صدورهن رغم أنه يعرف أنه منه فى حصن حصين .

وكان يعتقد أن الله خلق المرأة لتغوى الرجل وتختبره وأن على الرجل ألا يقربها إلا وهو متسلح بالحرص الذى يتسلح به وهو مقبل على كمين ، فالمرأة فى الواقع ليست إلا مصيدة بذراعيها الممدودتين وبشفتيها المفتوحتين فى انتظار الرجل .

وكان الأب «مارينيـان» لا يحترم إلا الراهبات اللاتى جـردهن القسم من الهوى ، ومع ذلك كان يعاملهن معـاملة قاسية . إذ يلمح هذا الحنان الخالد الذى يخفق ، حنى فى أعمـاق هذه القلوب الطاهرة يخفق دائماً ، ويخفق حتى له وهو القس .

وكـانت له ابنة أخت تعيش مـع أمهـا فى منزل صغـير قـريب من منزله، وكان قد صمم على أن يجـعل منها راهبة . وكانت رقيقة خـفيفة وتتعمد إغـاظته باستمرار . وعندما يعظ تضحك ، وعـندما يغضب تقبله فى حرارة وتضمـه إلى قلبها بينما يسعى هو بـلا وعى إلى تخليص نفسه من بين ذراعيها ومع ذلك كانت تلك الضمة تثـير فى نفسه إحساساً حلواً ، كانت توقظ فى قلبه ذلك الشعور الراقد فى أعماق كل رجل .

وكثيـراً ما حدثها عن الله ، عن ربه ، وهو يمـشى إلى جوارها فى الحقـول ونادراً ما أنصتت إليـه . كانت تنظر إلى السمـاء وإلى العشب وإلى الزهور وعيناها تلتمعان بفرحة الحـياة وكانت تجرى أحياناً لتمسك بفراشـة ثم تعود بها وهى تصـيح «أنظر أنظر يا خالى كم هى جـميلة ، بودى أن أقبلهـا» وكانت هذه الرغبة من جـانب الفتاه فى تقبـيل الفراش والزهور تزعج الأب وتضايقه وتثيره فقد رأى فيها دليلاً على ذلك الحنان الدائم الذى ينبض فى قلب كل امرأة .

وفى يوم من الأيام أخـبرت مـدبرة البـيت الأب «مارينيـان» أن ابنة أخته قد أتخذت لنفسها عشيقاً .

وعانى الأب إحساساً مؤلماً . وقف مختنقاً والصابون يغطى وجهه وهو يحلق وعندما استعاد القدرة على الكلام صاح :

* كذب كذب . . أنت تكذبين يا «مالينا» .

ولكن المرأة القروية وضعت يدها على قلبها وقالت .

* ليعاقبنى الله أن كنت أكذب يا سيدى القس أنها تذهب إليه كل ليلة بعد أن تنام أختك . وهما يتقابلان بجانب النهر ، وما عليك إلا أن تذهب إلى هناك ما بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل وستراها بعينيك .

وتوقف الأب عن حك ذقنه وبدأ يذرع الحجرة بسرعة كما يفعل عندما يستغرق فى تفكير عميق . وعندما حاول أن يكمل حلاقة ذقنه جرح نفسه ثلاثة جروح امتدت من الأنف إلى الأذن .

وظل طول اليوم ساكناً وقد امتلأ غضباً وثورة فإلى جانب كرهه الطبيعى للحب شعر أن كرامته قد أهينت كأب ومعلم وكراعى للنفوس ، شعر أن طفلة قد خدعته وسخرت منه وسلبته شيئاً يملكه . شعر بهذا الحزن الأنانى الذى يشعر به الوالدان حين تخبرهما ابنتهما أنها قد اختارت لنفسها زوجاً دون مشورتهما . وضد هذه المشورة .

وبعد العشاء حاول أن يقرأ قليلاً ولكنه لم يستطع أن يكيف نفسه للقراءة وازداد غضباً على غضب . عندما أعلنت الساعة العاشرة أخذ

عصاه وهى عصـا غليظة من خشب البلوط يحملها عادة حـين يخرج ليلا لزيارة المرضى . وابتسم وهو يرقب العصا الغليظة وقد استقرت فى قبضة يده القوية . وأدار العصا فى الهواء مهدداً ثم رفعها فجأة وهو يجز بأسنانه وانهال على كرسى فحطم ظهره .

وفتح باب بيـته ليـخرج ولكنه توقف عند بابه مـبهوتاً . كـان بهاء القمر رائعاً روعة نادرة ، واستجابت روحه السـامية لما حوله وشعر فجأة أن جمـال الليل الشاحب وجلالـه وبهاءه قد حـرك قلبه . وفى حديقـته الصغيرة التى سبحت فى ضيـاء باهت عكست أشجار الفواكه ظلالها على ممر الحديـقة، أغصان رقيـقة من الخـشب تكسوها الخـضرة من الزهور المتسلقة على الحائط انبعثت رائحة لذيذة حلوة علقـت كروح عطرة بالليل الدافئ الصحو .

وبدأ يتنفس تنفـساً عمـيقـاً . يحتسى الهـواء كمـا يحتسى السـكير الخمر . وسار ببطء مـسحوراً مبهوراً حتى كـاد ينسى إبنة أخته . وعندما وصل إلى بقعة عـالية وقف يرقب الوادى بأجمعه وقد امـتد تحت بصره وبهاء القـمر يحـتضنه ، وسـحر الليل الهـادئ الحنون يغرقـه ، ونقيق الضفـادع يتردد فى نغمـات قصيـرة ، والبلابل عن بعـد أشجاها القـمر فتغنت واختلط غناؤها فى موسيقى لا تثير الفكر وإنما تثير الأحلام .

واستمر الأب يمشى وهو لا يعرف لم تخلت عنه شجـاعته فقد شعر كمـا لو كان التعب والإرهاق قـد تسربا إليه ، وود لـو يجلس أو يتوقف حيث هو ليحمد الله على ما صنعت يداه .

وتحت بصره . حول منحنى النهر امتـد صفان طويلان من الأشجار وفوق شطى النهـر سبحت سحـابة خفيفـة بيضاء تخللتـها أشعة القـمر فأضفت عليها لون الفضة وبريقها .

وتوقف الأب من جـديد وقد نفذ إلـى أعماقـه شعـور قوى مـتزايد واسـتولى عليـه شك وقلق وشعـر أن سؤالاً مـن الأسئلة التى تلح عليـه أحياناً تدور إذ ذاك فى عقله .

لماذا فعل ذلك الله! إذا كان الليل للنوم للاغـفاء ، للراحة ، للعدم ، فلماذا كـان أكثر سـحراً من النهار ، وأجلى من الغـروب والشروق ؟ وهذا الكوكب البطئ الخلاب الذى يـغلب جماله على جمـال الشمس ، والذى يضئ للكـائنات بنور رقـيق يسـتـعـصى على الشـمس . . . هذا الكوكب لم يشرق لينيـر الظلال ؟ ولم لا يأوى البلبل الصداح إلى النوم كغـيره من الطيـور ولم هذا الحس الذى يتسلل إلى الروح وهذا الخـمول الذى يغزو الجـسد ؟ ولم هذا الوشاح الـذى ينسدل على الأرض ، وهذا السحر الذى لا ينعم به الإنسـان إذ يأوى إلى فراشه فى الليل؟ لمن خلق الله هذا الجـلال ، هذا الفيض من الشـعر الذى يتـدفق من السمـاء إلى الأرض ؟ ولم يجد الأب لهذه الأسئلة التى ثارت فى نفسه جواباً .

ولكن إذ ذاك فى طرف المرعى ظهر ظلان يمـشيان جنباً إلى جنب تحت الأشجار المتعانقة الغارقة فى الضباب الفضى .

وكان الرجل هو الأطول ، وقد التفت ذراعه حول عنق حبيبته ومن وقت لآخر كان يقبلها في جبينها . وفجأة دبت الحياة في الطبيعة المهجورة التي أحاطت بهما وكأنها إطار إلهي صنع خصيصاً من أجلهما . وبدأ الشخصان وكأنهما كائن واحد . الكائن الذي خلق من أجله الليل الهادئ الساكن ، واقتربا من القس كإجابة حية على سؤاله ، إجابة بعث بها إليه ربه الأعلى .

وقف الأب مصعوقاً وقلبه ينبض بشدة . وتمثل قصص الإنجيل كقصة حب روث Ruth وبوز Boaz ، وإرادة الله تتحقق في القصص الجليلة التي وردت في الكتاب المقدس . وفي رأس القس ترددت آيات نشيد الإنشاد ، الصرخات الوالهة ونداء الجسد ، والشعر الجميل في هذه القصيدة التي تتأجج حناناً وحباً . وقال لنفسه « ربما خلق الله مثل هذه الليلة إطاراً لمثله الأعلى . . . لحب الإنسان » .

وتراجع بعيداً عن الحبيبين اللذين تقدما يدا في يد . . كانت فعلا ابنة أخته . وكان الأب «مارينيان» يتساءل الآن . . . ألم يكن على وشك الخروج على طاعة الله ؟ فلو لم يكن الله يرضى عن الحب لما أحاطه بمثل ذلك الإطار من الجمال .

وهرب الأب مبهوتاً وهو يكاد يشعر بالخجل ، كما لو كان قد اجتاز هيكلاً مقدساً لاحق له في اجتيازه .

٢ - توان

جى دى موباسان

فى دائرة قطرها عشرة فراسخ كان كل أمرئ يعرف توان ، توان البدين ، «توان البراندى ، أنطوان ما شبليه مالك تورن فان .

كان قد جلب الشهرة إلى هذه القرية المدفونة فى أعماق الوادى ، والمنحدرة نحو البحر ، كانت ضيعة فلاحية فقيرة مكونة من اثنى عشر بيتاً نورمانديا تحدق بها الخنادق وتكتنفها الأشجار . وكانت البيوت مكومة فى تلاصق ، فى هذه المهواة المغطاة بالشجيرات ، وراء منحنى التل ، مما أضفى على القرية اسم تورن فان ، ومثلما تتوارى الطيور فى الأخاديد ، عند العاصفة ، لاح أنهم قد بحثوا عن ملجأ فى هذا التجويف، ملجأ من رياح البحر الملحة العنيفة ، التى كانت تقرض وتحرق كالنار، وتذوى وتدمر كهبات الشتاء .

لاح أن الضيعة كلها ملك لأنطوان ماشبليه الذى كان - إلى ذلك - كثيراً ما يدعى توان ، وتوان براندى - بسبب طريقته فى الكلام كان يستخدمها على نحو مستمر : كان يقول «إن براندى» خير براندى فى فرنسا» .

وكان براندیه هو الكونياك ، ليكن ذلك مفهوماً . ولمدة عشرين عاما ظل يروى الإقليم بكونياكه ، وحين كان يقدمه لعملائه كان من عادته آن يقـول : «إنه يدفئ المـعدة ويجلو الـرأس . ليس ثمة مـاهو أفـضل منه لصحتك يابنى» . كان يدعو كل امرئ «يابنى» رغم أنه لم ينجب قط .

آه نعم . كان كل امـرئ يعرف توان أضـخم رجل فى المقـاطعة أو حتى فى الإقليم ، وكان بيته الصغير يلوح ، على نحو مضحك ، أصغر من أن يحتويه وعندما كان يرى واقـفاً على باب داره ، حيث كان يقضى القسم الأكبر من نهاره ، كان المرء يتساءل: كيف أمكنه أن يدخل مسكنه ، ولكنه كان يدخله فـى كل مرة يتقدم إلـيه فيهـا عميل ، لأنه كـان قد أصبح من حق توان براندى أن يفرض كأساً صغيرة على كل من يشربون فى بيته .

كان مقهـاه يحمل على لافتته أسطورة «موعـد الأصدقاء» وكان توان العجـوز - بحق - صديـق كل الإقليم . كان الناس يأتون من فـيكامب ومونتيفيلييه كى يروه ، ويشربوا مـعه ، ويسمعوا قصصه . ذلك أنه كان بوسع هذا الرجل الضخم الرضى الطبع أن يضحك الموتى . كان بوسعه أن يمزح دون أن يجرح أحداً ، وأن يغمز بعينيه تعبيراً عما لا يجرؤ على التفوه به ، وأن يقرص ضلوع مـحدثه فى نوبة من نوبات المرح ، بحيث يجبره على الضحك ، رغماً عنه . ثم كان من الأمور الشائقة أن تراه وهو يشرب . كان يشرب كل ما يقدم إليـه ، من كل إنسان ،وثمة فرحة فى

عينه الشقيـة ، فرحة مصدرها متـعة مزدوجة : متعة تسـلية نفسه أولاً ، ومـتعـة أن يكوم المال على حـساب أصـدقائه بعـد ذلك. وكان أوغـاد المجتـمع يتساءلون : لم لم ينجب توان أطفالاً . وذات يـوم وجهنا إليه هذا السؤال، فأجـابهم بغمزة شقيـة : «إن زوجتى ليست جذابة بمـا فيه الكفاية لرجل فاتن مثلى» .

وكانت مـعارك توان مع زوجـته العاطلة من الجـمال مـصدر متـعة للشاربين ككونياكهم المفضل، لأنهما ظلا يتشاجران طوال سنى حياتهما الزوجية الثلاثين، وكان توان رضى الطبع فى هذا الموضوع ، بينما كانت زوجتـه تشتعل غضـباً. كانت فلاحـة طويلة تسير بخطوات طويلة أشـبه بخطوات سائر على طوالتين، وتحمل فرق جـسمها النحيل المسطح رأس برمة قبيـحة ناعبة. وكانت تقضى وقتـها كله فى تربية الدواجن فى الفناء الصغير الذى يقع وراء المشرب، وتعرف بنجاحها فى تسمين طيورها .

وعندما كـانت أى سيدة من كـبار نساء فـيكامب تقيم وليـمة لذوى المكانة ، كان من الضرورى لنجاح الوجبة أن تزين بطيور فناء دجاج الأم توان المشهورة .

بيـد أنهـا ولدت بطبع شـرير وظلت سـاخطة على كل شئ . وإذ كانت غـاضبة من كل إنسـان ، كان غضـبها منصـباً على زوجهـا بوجه خاص . كانت تسخر من مرحه وشعبيته وصحته الطيبة وبدانته ، وتعامله بأكـبر قـدر من الأزدراء لأنه يحصل عـلى المال دون أن يعـمل من أجله

ولأنه فيما تقول يأكل ويشرب قدر ما يأكله ويشربه عشرة رجال عاديين . وكانت تعلن ، كل يوم ، أنه لا يصلح إلا لأن يتناسل فى الأسطبل مع الخنازير العارية التى يشبهها ، وأنه ليس إلا كتلة من الشحم تغشى لها البطن . كانت تصرخ فى وجهه «انتظر قليلاً ، انتظر قليلاً ، سنرى قريباً ما الذى سيحدث . إن هذه القرية الكبيرة ستنفجر كجوال من الحبوب .

وكان توان يضحك حتى يهتز ككأس من الهلام ويرد وهو ينقر على بطنه الجسيمة : «آه يادجاجتى العجوز . فلنرك وأنت تحاولين أن تجعلى أفراخ سمينة مثلها» .

وإذ يشمر عن كمه يكشف عن ذراعه المفتول ، ويهتف «ألا ترين الزغب وقد بدأ ينمو فعلاً ؟» فكان العملاء يدقون بأيديهم على المائدة ، ويتلوون سروراً ، ويضربون الأرض بأقدامهم ، ويبصقون على الأرض فى بحران من البهجة .

ازدادت العجوز غضباً وصاحت بأعلى ما تقدر عليه رئتاها :

«فقط انتظروا قليلاً وسنرى ما سيحدث . سينفجر توانكم براندى كجوال من الحبوب» .

واندفعت خارجة ، وقد جن جنونها غضباً من ضحك جمع السكارى، والحق أن توان كان أعجوبة للرائى ، فقد غدا بالغ البدانة

والحمرة ولهاث الأنفاس . كان واحداً من تلك المخلوقات الضخمة التى يلوح أن الموت يسلى نفسه معها بالألاعيب والمرح وضرب التهريج القاتل، جاعلاً من عملية القضاء عليها شيئاً ملهوياً على نحو لا يقاوم . فبدلاً من أن يتجلى- مثلما يتجلى للآخرين - فى الشعر الأبيض والأطراف المنكمشة والغضون والضعف العام الذى يجعل المرء يقول وهو يرتعش : «يالله ، كم تغير !» كان يجد متعة فى أن يزيد توان سنة ، وأن يجعل منه هولة مضحكة ، ويضفى على وجهه حمرة ، ومنحه مظهر الصحة الفائقة ، بحيث غدت ضروب التشويه التى يمتحن بها سائر الكائنات باعثة على الضحك - فى حالة توان - ومسلية بدلاً من أن تكون منذرة بالشؤم وموضع رثاء .

«انتظروا قليلاً ، انتظروا قليلاً» . هكذا راحت الأم توان تتمتم وهى تنشر الحب فى فناء دواجنها ، «سنرى ما سيحدث» .

٢

وقد حدث أن أصيب توان بنوبة ووقع صريع ضربة شلل . حملوا العملاق إلى الغرفة الصغيرة ، المفصولة بحاجز ، فى آخر المقهى ، كى يتمكن من سماع ما يدور على الجانب الآخر من الجدار ، ويتحدث مع أصدقائه ، حيث أن عقله ظل صافياً ، بينما تمدد جسمه الضخم بلا حول ولا قوة . وأملوا ، وقتاً ، أن تستعيد أطرافه الضخمة بعض نشاطها ، ولكن هذا الأمل سرعان ما اختفى ، واضطر توان براندى إلى قضاء

نهاره وليلـه فى فراشه ، الذى ، لم يكن يسـوى إلا مرة فى الأسـبوع ، بمساعدة أربعة من أصدقائه كانوا يرفـعونه من أطرافه الأربعة ، بينما تغير حشيته . وظل على مرحه ، ولكن بنوع مـختلف من المرح : أشد تهيبا وأشد اتضـاعاً ، وبذلك الخوف المشـجى لطفل فى حضور زوجـته التى كانت تؤنبـه وتصخب طوال اليـوم : «ها هو ذا يرقد ، البطن الكبـير ، الكسول غير النافع، القـذر !» . هكذا كانت تصيح . ولم يكن توان يرد عليهـا بشئ، وإنما كـان يطرف بعينيه فـقط ، من وراء ظهر العـجوز ، ويتحول فى فـراشه، وهى الحركة الوحـيدة التى يمكنه القيـام بها . كان يدعو هذا التغيير «التحرك نحـو الشمال أو الحركة نحو الجنوب» وكانت تسليتـه الوحيـدة الآن تنحصر فى الاسـتماع إلى المـحادثات فى المـقهى والاشتراك فى الكلام عبر الجدار . وعندمـا كان يتعرف على صوت واحد من أصدقائه ، كان يهتف «هالو يابنى .. أهدأ .. أنت ياسلستين ؟» .

وكان سلستين مالوازيل يجيب : «أجل أيها الأب توان . كيف حال ركضك اليوم يا أرنبى الكبير ؟» .

فيجيبـه توان: «ليس بوسعى أن أركض ياسلستين. ولكنى لا أنحف إن القشرة جيدة». وسرعان ما يدعو رفاقه إلى غرفته ليأنس بصحبتهم ، حيث أنه كان يؤلمه أن يراهم يشـربون بدونه وكان يقول لهم إنه يحزنه ألا يتمكن من احتساء كونياكـه معهم: «إنى لأستطيع احتمال كل شئ ، ولكن عدم قدرتى على الشرب معكم يحزننى يا أبنائى» .

وعند ذلك تظهر رأس البومة الناعبة : الأم توان ، فى النافذة وهى تقول : «انظروا انظروا إليه . . . هذا المتسكع الجسيم الثقيل الذى لابد من أن يغذى ويغسل وينظف كخنزير !!!» .

وعندما كانت تختفى ، كان ديك أحمر الريش يجثم أحياناً على حافة النافذة ، وإذ ينظر حوله بعينيه المستديرتين المستطلعتين يطلق صيحة ثاقبة . وأحياناً كانت دجاجتان ، أو ثلاث تتسرب ، تخدش الأرض وتنقرها ، وقد جذبها الفتات المتساقط من طبق الأب توان .

وسرعان ما هجر أصدقاء توان براندى المقهى إلى غرفته . وفى كل أصيل كانوا يثرثرون حول فراش الرجل الضخم . ورغم اضطراره إلى ملازمة الفراش فإن هذا الوغد - توان - كان يسليهم ويجعل الشيطان ذاته يضحك ، هذا المرح ! كان ثمة أصدقاء ثلاثة يأتون كل يوم : سلستين مالوازيل وهو رجل طويل نحيف معوج البدن كجذع شجرة تفاح ، وبروسبر هورسلافيل وهو عجوز جاف ، ذو أنف كالعرسة ، خبيث ماكر كثعلب ، وسيزبريومبل الذى لم يكن ينبس بكلمة قط ، ومع ذلك يستمتع بالجلسة . أحضر هؤلاء الرجال خوانا من الفناء وضعوه عبر الفراش وكانوا يلعبون عليه الدومينو من الثانية بعد الظهر حتى السادسة . ولكن الأم توان كانت سرعان ما تتدخل : فلم تكن لتحتمل أن يسلى زوجها نفسه بلعب الدومينو فى فراشه . وفى كل مرة كانت ترى فيها اللعبة ، تثب إلى الغرفة ثائرة وتقلب الخوان وتأخذ الدومينو وتحمله إلى

المقهى معلنة أنه حسبها أن تغذى هذه الكتلة الضخمة من الشحم ولا تراه يسلى نفسه على حساب العاملين المجاهدين . وكان سلستين مالوازيل يحنى رأسه أمام العاصفة ولكن بروسبرهورسلافيل كان يحاول أن يزيد من إنفعال العجوز التى كان يستمتع بنوبات غضبها . وحين رآها ، ذات يوم ، أشد غضباً من المعتاد قال لها «هالو أيتها الأم توان . . . أتعلمين ماذا كنت أفعل لو كنت مكانك ؟» .

فانتظرت منه تفسيراً ، وهى تثبت عليه عينيها الشبيهتين بعينى البومة، واستمر قائلاً :

«إن زوجك الذى لا يفارق فراشه قط سخن كالموقد . قد كنت بحيث أجعله يفقس بيضاً» .

فظلت مبهوتة تظنه يمزح ، وهى تراقب وجه الفلاح الهزيل الماكر الذى مضى قائلاً :

«قد كنت بحيث أضع خمس بيضات تحت كل ذراع من ذراعيه فى نفس الوقت الذى تبدأ فيه الدجاجة الصفراء فى احتضان بيضها . . وسيفقس البيض كله فى وقت واحد . . وحين تخرج الأفراخ من القشر، أضع أفراخ زوجك تحت الدجاجة كى تربيها . سيجلب لك هذا بعض الدواجن أيتها الأم توان» .

ودهشت العجوز وسألته : «أيمكن هذا ؟» .

فمضى بروسبر قائلاً : «لم لا ؟ فما داموا يضعون البيض فى صندوق دافئ كى يفقس ، فإن من الممكن أن يوضع فى فراش دافئ» .

فتأثرت بهذا الاستدلال تأثراً عميقاً وخرجت رابطة الجأش متفكرة .

وبعد ثمانية أيام أقبلت على غرفة توان ، ومرولتها ملآنه بيضا ، وقالت له : «قد وضعت لتوى عشر بيضات تحت الدجاجة الصفراء . هاك عشرة لك ! احذر أن تكسرها !» .

فدهش توان وهتف بها : «ماذا تعنين ؟» .

أعنى أن عليك أن تفقسها ، أيها العاطل غير النافع .

ضحك توان فى البداية. وعندما أصرت غضب ورفض فى عناد- أن يسمح لها بوضع البيض تحت ذراعيه الجسيمتين ، حتى تفقسه حرارتهما . ولكن العجوز المخيبة الأمل ثارت وأعلنت : «لن تجد كسرة تأكلها ما دمت ترفض أخذ هذا البيض - هاك ، سنرى ما سيحدث» .

كان توان قلقاً ولكنه لم يقل شيئاً حتى سمع الساعة تدق الثانية عشرة ، وعند ذلك نادى زوجته التى صاحت من المطبخ : «لا عشاء لك اليوم أيها العاطل الكبير !» .

وفى مبدأ الأمر ظن أنها تمزح ، ولكنه عندما وجدها جادة ، توسل وصلى وسب على التعاقب : استدار شمالاً وجنوباً . وإذ تولاه القنوط تحت وطأة آلام الجوع وروائح اللحم دق الحائط بقبضته الكبيرة إلى أن

أنهك ، فى نهاية المطاف ، وكـاد يموت جوعـاً فسمع لزوجتـه بإدخال البيض فى فراشه ، ووضعه تحت ذراعيه . وعند ذلك أعطته حساءه .

وعندما وصل أصدقاءه كالمعتاد ، ظنوا أن المرض قد اشتد بتوان ، فقد بدا متوتراً متألماً .

ثم شرعـوا يلعبون الدومـينو كالعـهد بهم ، ولكن لاح أن توان لا يجد فـى اللعبة مـتعـة ، وإنما يمـد يده على نحو بالغ الحـرص وبعناية واضحة إلى الحد الذى يشكوا معه - على الفور - فى أن ثمة خطأ ما .

وسأله هورسلافيل : «هل ذراعك مربوطة ؟

فأجابه توان بضعف : «أشعر بثقل فى كتفى» .

وعلى حين غرة دخل شخص المقـهى ، وتوقف اللاعبون كى يلقوا بأسماعهم . كان العمدة ومساعده وقد طلبا كأسين من الكونياك ثم شرعا يتحدثان عن شئون الإقليم . وإذ راحا يتحـدثان بنبرات خفيضة ، حاول توان أن يلصق أذنه بالحائـط ، . وإذ نسى بيضه مال فـجأة نحو الشـمال فاسـتحـال البـيض إلى عجـة . وإذ أطلق لفظة سبـاب دخلت الأم توان راكضة . وحـين حدثت الكارثة التى وقعت ، كشـفت عنه . ووقفت ، لحظة ، أشد غـضباً - لاهثة الأنفـاس - من أن تتكلم ، هى ترى منظر الكمادة الصـفراء الملصقـة بخصر زوجـها . وعند ذلك ، وهى ترتعش غضـباً ، رمت بنفـسهـا على المشلول وبدأت تضـربه بقوة شـديدة على

جسمه، وكأنها تضرب ثيابها المغسولة على ضفاف النهر . أمطرته بضرباتها بقوة وسرعة قارع طبل يدق طبلته .

اختنق أصحاب توان بالضحك والسعال والعطس والتفوه بعبارات التعجب بينما راح الرجل المرتعب يتقى هجمات زوجته بالحرص اللازم كيلا يكسر البيضات الخمس التى كانت مازالت على الجانب الآخر .

٣

هزم توان . اضطر إلى فقس البيض . كان عليه أن يهجر مسرة الدومينو البرئية ، وأن يتخلى عن كل مجهود للتحرك شمالاً أو جنوباً ، لأن زوجته كانت تحرمه من أى غذاء فى أى مرة يكسر فيها بيضة . رقد على ظهره ، عيناه مثبتتان على السقف ، وذراعاه ممتدان كالأجنحة ، يدفئ لصق بدنه الضخم الأفراخ البادئة فى قشرها الأبيض . لم يكن يتكلم إلا بصوت خفيض وكأنه يخشى الضجة خشيته الحركة ، وكثيراً ما كان يسأل عن الدجاجة الصفراء فى فناء الدواجن التى كانت منهمكة فى نفس عمله. كانت العجوز تتردد بين الدجاجة وزوجها ، وبين زوجها والدجاجة، وقد تملك تفكيرها وشغلها الأفراخ الصغار الآخذة فى النضج: فى الفراش والعش . وما لبث أهل الإقليم ، الذين سرعان ما سمعوا بالقصة ، أن جاءوا متطلعين جادين كى يعرفوا أخبار توان . دخلوا على أطراف أصابعهم ، مثلما يدخل المرء غرفة مريض ، ويسألوا بقلق :

«كيف الحال يا توان ؟» .

فكان يجيب : «عليها أن تفقس ، ولكن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً. لقد تعبت من الانتظار . إنى أنفعل وأشعر برجفات باردة تركض على طول جلدى» .

وذات صباح دخلت زوجته ، وقد ارتفعت حالتها المعنوية كثيراً وتساءلت : «لقد فقست الدجاجة الصفراء سبعة أفراخ . لم يكن هناك سوى ثلاث بيضات فاسدة !» .

فشعر توان بقلبه يدق ، كم من البيض عساه يفقس ؟

وسأل بعذاب المرأة التى على وشك الولادة : «هل يتم الفقس قريباً ؟» .

فأجابته المرأة - المعذبة بخوف الفشل - غاضبة :

«نأمل هذا !» .

وانتظرا .

وإذ رأى الأصدقاء أن وقت فقس توان قد أزف ، اشتد قلقهم بدورهم . كانوا يتحدثون عن الموضوع فى البيت ، وجعلوا كل الجيران على معرفة بتقدم الأمور . ونحو الثالثة ، أغفى توان . كان الآن يناهز نصف الوقت . ثم أيقظته فجأة دغدغة غير مألوفة تحت ذراعه اليسرى ، فوضع يده على المكان بعناية وأمسك حيواناً صغيراً يكسوه زغب أصفر راح يجاهد بين أصابعه . وكان انفعاله من الشدة بحيث صرخ قائلا

الفرخ الذى جرى على صدره . وامتلأ المقهى بالناس . اندفع العملاء إلى الغرفة وأحاطوا بالفراش بينما أمسكت الأم توان - التى وصلت على أول صوت - بالفرخ بعناية ، إذ أوى إلى لحية زوجها . ولم ينبس أحد بكلمة. كان يوماً دافئاً من أيام أبريل ، وكان بوسع المرء أن يسمع - من خلال النافذة المفتوحة - نقيق الدجاجة الصفراء ، وهى تنادى أفراخها الحديثة الولادة ، وتمتم توان الذى كان يرشح عرقا من الأنفعال والعذاب «أشعر بآخر تحت ذراعى اليسرى» .

فغاصت زوجته بيدها الكبيرة النحيلة تحت أغطية الفراش ، واستخرجت فرخا آخر بكل حرص القابلة .

ورغب الجيران فى رؤيته وتناقلوه من يد إلى يد ، وهم ينظرون إليه مرتعبين وكأنه ظاهرة طبيعية ، ولمدة عشرين دقيقة ، لم يفقس شئ آخر، ثم خرجت أربعة افراخ من قشر بيضها فى وقت واحد . وأحدث هذا انفعالاً عظيماً بين المراقبين .

وابتسم توان سعيداً بنجاحه وبدأ يشعر بالفخر بهذه الأبوة الفريدة لم ير مثل هذا المنظر من قبل . كان رجلاً عجيباً حقاً ! وهتف توان : «هذا يصنع ستة ، اللعنة ! أى حفل تنصير سيكون هذا !» وخرجت ضحكة كبيرة من الجمهور. والآن زحف الناس آخرون إلى المقهى وملأوا الباب بأعناقهم المشرئبة وأعينهم المستطلعة .

وتساءلوا: «كم أنجب ؟»

«ستة» .

وجرت الأم توان بالأفراخ الجديدة إلى الدجاجة التى انتصب ريشها - وهى تنق شاردة وبسطت جناحيها كى تحمى صغارها الآخذين فى التزايد .

وهتف توان : «وهذا واحد آخر» ولكنه كان مخطئاً ، فقد كانوا ثلاثة. كان هذا انتصاراً. . وكسر الأخير قشرته فى السابعة مساء. لم يكن فى بيض توان بيضة واحدة فاسدة. استراح وراح يهذى من الفرحة، وأمسك بالمخلوقات الصغيرة الضعيفة يقبلها على ظهرها. وكان من الممكن أن يخنقها بعناقه. أراد أن يحتفظ بهذا الفرخ الصغير حتى اليوم التالى، وقد حركه حنان الأمومة نحو هذا الكائن الذى منحه الحياة. ولكن العجوز حملته بعيداً ، مثلما فعلت بالآخرين، دون أن تصغى إلى توسلات زوجها .

وعاد أصدقاء توان إلى بيوتهم مبتهجين، يتحدثون عن الحدث فى طريقهم .

وظل هورسلافيل بعد أن مضى الآخرون ، وإذ اقترب من أذن توان همس آه : ستدعونى إلى أول يخنة . أليس كذلك ؟ «ولدى فكرة اليخنة أنار وجه توان وأجاب : «سأدعوك بالتأكيد يابنى .»

٣ - المدرسة

انطون تشيخوف

تركت العربة المدينة فى الساعة الثامنة والنصف .

وكان الطريق العام جافاً ، وشمس أبريل الجميلة تبعث بأشعتها الدافئة ، ولكن الثلوج كانت مازالت متراكمة فى الحفر وفى الغابات . وكان الربيع قد حل بصورة مفاجئة ولم يكد شتاء ذلك العام المظلم الطويل القارس ينتهى . ولم تر ماريا فاسيلفنا التى جلست فى العربة فيما حولها شيئاً جديد أو مثيراً ، فلا الدفء أثارها ، ولا الغابات الساكنة الشفافة التى غزتها أنفاس الربيع ، ولا أسراب الطيور السوداء تحلق فوق بقع من الماء أشبه بالبحيرات ، ولا السماء الرائعة العميقة عمقاً لا نهائياً التى تجعل الإنسان يتمنى أن يذوب فيها . فقد اشتغلت كمدرسة لمدة ثلاثة عشرة سنة ، وذهبت إلى المدينة خلال هذه السنوات الطويلة مرات لا حصر لها لتقبض أجرها ، وسيان لديها إن كان الزمن ربيعاً كما هو الآن أو خريفاً ممطراً أو شتاء ، وفى كل مرة لم تكن تتمنى سوى شيئاً واحداً، أن تنتهى الرحلة بأسرع ما يمكن .

وكانت تشعر كما لو كانت قد عاشت فى ذلك الجزء من الريف أجيالاً وأجيال . مئات من السنوات . وخيل إليها أنها تعرف كل حجر وكل صخرة فى الطريق من المدينة إلى مدرستها فماضيها هنا وحاضرها وهى لا تستطيع أن تتصور لنفسها مستقبلاً آخر منفصلاً عن المدرسة عن الطريق إلي المدينة والعودة منها ، العودة إلى المدرسة ومن المدرسة إلى الطريق من جديد .

وكانت قد تخلصت من عادة التفكير فى الماضى ، ماضيها قبل أن تصبح مدرسة ، وكادت تنسى هذا الماضى تقريباً ، كان لها فى يوم من الأيام أب وأم ، وكانوا يعيشون فى موسكو فى شقة كبيرة بالقرب من البوابة الحمراء ، ولكن لم يبق فى ذاكرتها من هذه الأيام سوى أشياء غامضة كالحلم ، مات أبوها وهى طفلة فى العاشرة ، وماتت أمها بعده بقليل . وكان لها أخ ضابط فى الجيش ، وفى البداية كانا يتراسلان ثم لم يعد أخوها يجيب على رسائلها ، انقطع عن الكتابة . ولم يبق لديها من ممتلكاتها القديمة سوى صورة لأمها ، ولكن هذه الصورة أصبحت باهتة من رطوبة المدرسة ، والآن لا يمكن أن يتبين الإنسان منها شيئا سوى الشعر والحاجبين .

بعد أن قطعت العربة عدة أميال استدار السائق سيمون العجوز وقال:

– «لقد قبضوا على أحد الكتبة الحكوميين فى المدينة ، ويقال أنه اشترك وبعض الألمان فى قتل اليكسيف العمدة فى موسكو» .

- «من قال لك ذلك ؟» .

- «لقد سمعتهم يقرأون الخبر فى الجريدة ، فى حانة إيفان إيونوف .

ومن جديد ساد السكون مدة طويلة ، وفكرت ماريا فاسيلينا فى مدرستها ، فى الامتحانات المقبلة ، وفى البنت والأربعة أولاد الذين تعدهم لدخول هذه الامتحانات . وبينما كانت تفكر فى الامتحانات لحق بها هانوف أحد ملاك الأرض المجاورة فى عربة تجرها أربعة خيول ، وهو نفس الرجل الذى كان فى السنة الماضية ممتحناً خارجياً فى مدرستها ، وعندما وصل بحذائها تعرف عليها وأحنى رأسه وقال :

- «صباح الخير ، أظنك عائدة إلى البيت» .

وهانوف رجل فى الأربعين من عمره فى وجهه قلق وإرهاق ومعالم الشيخوخة تدب فيه ، ولكنه مع ذلك مازال جميلاً ومازالت النساء تعجب به ، وكان يعيش فى قصره وحيداً ، بعد أن ترك الخدمة . وكان الناس يقولون أنه لا يقوم بعمل ما فى بيته ، وإنما يكتفى بأن يذرع الحجرات جيئة وذهاباً وهو يصفر أو يلعب الشطرنج مع خادمه العجوز . كما قيل أيضاً أنه يشرب كميات هائلة من الخمر ، والواقع أن أوراق الأمتحانات التى أعادها السنة الماضية كانت فعلاً تفوح برائحة الخمر . وأثناء الامتحانات كان يرتدى ملابس جديدة أنيقة ، واعتبرته ماريا فاسيليفنا جذاباً للغاية . وجلست طيلة الوقت إلى جانبه مرتبكة . كانت قد اعتادت أن ترى فى المدرسة ممتحنين يتميزون بالتزمت والتعقل بينما

كان هانوف لا يجد أسئلة يوجهها إلى الطلبة ، وكان مؤدباً ورقيقاً للغاية . ولا يعطى سوى أعلى الدرجات .

وقال هانوف مخاطباً ماريا فاسيليفنا .

– «كنت ذاهباً إلى زيارة باركفيتش ، ولكن قيل له أنه ليس فى البيت»

وخرجوا من الطريق العام إلى طريق جانبى مؤدى إلى القرية . هانوف بعربته يتبعه سيمون ، وكانت الخيول الأربعة تمشى متئدة تحر بصعوبة العربة الثقيلة خلال الوحل . وأخذ سيمون ينتقل من جانب إلى جانب ليلتزم حافة الطريق ، يعبر أحياناً أكواماً من الثلج وأحياناً أخرى مستنقعات من الماء ، وينزل بين الحين والحين من على مقعده ليجر الخيل بيده ، وكانت ماريا فاسيليفنا مازالت تفكر فى المدرسة ، وفى امتحان الحساب وهل يجئ صعباً أم سهلاً . وشعرت بضيق من مجلس القرية ، لم تجد أحد منهم فى المكتب أمس ، هل هذا هزل أم عمل ؟ إن لها سنتين تطلب إليهم أن يقيلوا الحارس الذى لا يقوم بعمل ما . ويعاملها بوقاحة ويضرب الطلبة ، وما من أحد يعيرها اهتماماً ونادراً ما استطاعت أن تجد رئيس مجلس القرية فى مكتبه فإن وجدته قال لها والدموع تملأ عينيه أنه غارق فى العمل ، وليس لديه دقيقة واحدة من الفراغ ، والمفتش لا يزور المدرسة إلا مرة كل ثلاث سنوات ولا يفهم واجباته لأنه كان مفتشاً فى الجمارك وحصل على وظيفة مفتش مدارس نتيجة لاتصالاته بأصحاب النفوذ .

ومجلس المدرسة لا يجتمع إلا نادراً ، وإن اجتمع لا تعرف هى أين اجتمع ، والمسئول عن المدرسة يعمل فى دبغ الجلود ، ويكاد يكون فى جهل الفلاحين ، ثم أنه غبى ووقح ، وصديق حميم للحارس وهى لا تعرف أين تتجه بشكواها وبتحرياتها .

وقالت لنفسها وهى تنظر إلى هانوف «إنه جذاب حقاً» .

وازداد الطريق سوءاً على سوء ، ومروا خلال الغابة ، ولم يكن هناك مجال يتيح للعربة أن تستدير ، وغرقت العجلات ، وأصابتهم المياه برشاشها . وضربتهم أغصان الأشجار فى وجوههم وقال : هانوف وهو يضحك «ياله من طريق» .

ونظرت إليه المدرسة فى عجب . لم يعيش هذا الرجل الغريب هنا؟ وما فائدة نقوده ومظهره الجذاب ، وسلوكه المهذب فى هذا الوحل ، فى هذه الأرض الموحشة التى هجرها الله ؟ . وهو لا يجنى من الحياة مكسباً، وهاهو ذا شأنه شأن سيمون يسوق العربة فى طريق موحل ويعانى نفس المتاعب التى يعانيها سيمون . ولماذا يعيش الإنسان هنا إن كان يستطيع أن يعيش فى بترسبورج أو فى الخارج ؟ إن المسألة بسيطة بالنسبة لرجل غنى مثله ، إنه يستطيع أن يختار لنفسه طريقاً ممهداً بدلاً من ذلك الطريق الوعر ، وإن يتجنب هذا البؤس ، بتجنب نظرة اليأس التى ترتسم على وجه سيمون ، ولكنه يكتفى بالضحك ، ولا يبدو أنه يهتم بكل هذا . أو يريد لنفسه حياة أفضل أنه طيب ، ناعم ، ساذج ، ولا يفهم هذه الحياة الخشنة تماماً كما كان فى الامتحانات. وهو لا يهدى

المدرسة سوى كرات أرضية صغيرة، ثم يعتبر نفسه مفيداً وعضواً عاملاً فى قضية التعليم العام ، وما فائدة كراته الأرضية هنا ؟ وصاح يمون.

- «اثبتى فى مكانك يافاسيليفنا» .

وارتجت العربة فى عنف وكادت تنقلب . وسقط شئ ثقيل على قدمى ماريا - كانت حزمة مشترواتها . وكان لابد وأن تصعد العربة طريقاً مرتفعاً خلال التل الصخرى ، والماء يموج فى الحفر المنحنية . وكيف يستطيع الإنسان أن يمضى فى مثل هذا الطريق ! وتنفست الخيل فى صعوبة ، ونزل هانوف من عربته ومشى إلى جانب الطريق فى معطفه الطويل . كان يشعر بحرارة الجو وقال .

- «ياله من طريق» ، وضحك من جديد ، «لابد وأنه سيحطم العربة عن قريب» .

وقال سيمون بمرارة :

- «ليس هناك ما يجبرك على الخروج فى مثل هذا الجو.خير لك أن تبقى فى منزلك» .

- «إنى أشعر بالملل فى منزلى ياجدى العزيز» ولا أريد أن ألزم بيتى».

وبدأ هانوف إلى جانب سيمون رشيقاً ومليئاً بالحيوية ، ولكن فى مشيته بداشئ ما يشير إلى أن الوهن بدأ يتسرب إلى جسده وأنه فى

طريقه إلى الأنهيار ، وفجأة فاحت رائحة الخمر فى الغابة . وامتلأ قلب ماریاسیلیفنا بالخوف وبالإشفاق ، الإشفاق على ذلك الرجل الذى يتجه إلى الانهيار دون سبب معقول . وخطر ببالها أنها لو كانت زوجته أو شقيقته لكرست حياتها لإنقاذه من الإنهيار . زوجته ! هذا هو قانون الحياة . أن يحيا هو وحيداً فى منزله الكبير . وأن تحيا هى وحيدة فى القرية التى هجرها الله ، وأن يبدو لسبب ما مجرد التفكير فى إمكانية تآلفهما كندين مستحيلاً ومضحكاً والواقع أن الحياة قد نظمت والعلاقات الإنسانية قد تعقدت ، بطريقة تستعصى على الفهم بحيث يتوه الإنسان عندما يفكر فيها ويشعر بالألم .

وقالت ماريا لنفسها «وهذا بدوره أمر يستعصى على الفهم ، لماذا يمنح الله الجمال . والجلال والعيون الحزينة الحلوة للضعفاء ، وللمنحوسين والتافهين - لماذا ينعمون بهذه الجاذبية ؟!» .

وقال هانوف وهو يركب عربته

- «لابد لنا الآن أن نغير وجهتنا ونستدير إلى اليمين ، مع السلامة أتمنى لك حظاً سعيد» .

ومن جديد فكرت ماريا فى الطلبة ، وفى الامتحانات وفى الحارس وفى مجلس المدرسة . وعندما ردد الريح صوت العربة التى ذهبت بعيداً ، اختلطت هذه الأفكار بغيرها ، وشعرت ماريا بحنين إلى العيون الجميلة وإلى الحب ، وإلى السعادة التى لن تأت أبداً ! .

زوجته ! البـرد يشتد فى الصبـاح ، والمدفأة عاطلـة . والحارس قد اختفى ، والأطفال يأتون إلى المدرسة بمـجرد أن ينبلج الصبح ، ومعهم الثلج والوحل والضجة ، وكـل شئ متعب وغير مريـح ، مسكنها يتكون من حجرة واحدة ومطبخ إلى جانبها ، ورأسها تؤلمها كل يوم بعد انتهاء العمل ، وبعد العشاء تعانى من معدتها وعليها أن تجمع النقود من أطفال المـدرسة لشـراء الوقود ولأجـر الحارس ، وأن تعطيـها للمـسئـول عن المدرسة، ثم ترجوه وتلحف الرجاء ، ترجو ذلك الجلف المتخم بالطعام بأن يرسل إليهـا وقوداً وبالليل تحلم بالامـتحانات وبالفـلاحين وبالثلوج المتراكمة ، وهذه الحياة تجعلها تهزم قبل أوانها وتبدو خشنة قبيحة ثقيلة الحركة كما لو كانت مـصنوعة من الرصاص . وهى دائماً خائفة ، وهى تقفز من مقـعدها ولا تجسر على الجلوس فى حضرة أحـد أعضاء مجلس القرية أو المـسئول عن المـدرسة ، وهى تستـخدم عبارات رسـمية مليـئة بالاحترام عندما تتحدث عن واحد منهم وليس هناك من يعتقد أنها جذابة والحيـاة تمضى جافة بلا عـاطفة . بلا حنان من أصدقاء ، ولا مـعارف ذوى قيمة .

وأى موقف مؤلم يكون مـوقفها وهذه حالها لو كـانت قد وقعت فى الحب .

– «الزمى مكانك يافاسيليفنا» .

ومن جديد طريق مرتفع خلال التل .

لقد أصبحت مدرسة بحكم الضرورة ، دون أن تشعر برغبة حقيقية فى التدريس . ولم تفكر يوماً أنها تخدم قضية العلم . وبدا لها دائماً أن أهم شئ فى عملها الامتحانات لا الأطفال ولا العلم وهل لديها وقت لتفكر فى المهنة ، فى خدمة قضية العلم ؟

واستمر سيمون يتخير أقصر الطرق وأجفها ، خلال المراعى والطرقات الخلفية للقرية ، ولكن الفلاحين منعوه من المرور مرة ومرة أخرى لم يستطع أن يعبر أرض راعى الكنيسة . وفى المرة التالية وجد أن إيفان أيونوف اشترى قطعة من المالك وحفر فيها خندقاً . وكان عليهم أن يستديروا إلى الخلف من جديد .

ووصلوا إلى نيزنى جورودتش وإلى جانب الحانة حيث مازال الثلج متراكماً وقفت عربات كبيرة تحمل زجاجات ضخمة من حامض الكبريت. وفى الحانة عدد كبير من الناس أغلبهم من سائقى العربات ، ورائحة فودكا ودخان السجائر ، وجلود الماشية ، وأصوات عالية لمناقشات ، والباب الخارجى يفتح ويعلق . ومن خلال الحائط تسرب صوت لا يتوقف لآلة موسيقية تعزف فى المحل الملحق بالحانة . وجلست ماريا فاسيليفنا تشرب الشاى . بينما جلس بعض الفلاحين إلى مائدة مجاورة يشربون البيرة والفودكا . ونضح العرق على وجوههم من الدخان الذى عبقت به الحانة .

واختلطت الأصوات المتصايحة .

«اسمع ياكوزما» ، «ماذا» ، «ليحرسنا الله» .

«أنا أؤكد ذلك يا إيفان ديمنيش» «احترس أيها الرجل العجوز» وبدأ رجل صغير الحجم بوجه ملئ بالبقع وبذقن سوداء يسب ، كان واضحاً أنه فقد وعيه نتيجة للسكر .

وقال سيمون فى غضب وهو يجلس فى جانب من الحانة يخاطب الرجل المخمور .

- أنت ! لماذا تسب ؟ ألا ترى السيدة الشابة ؟

وفى جانب آخر قلد أحد الناس سيمون وقال فى سخرية «السيدة الشابة!» .

- قطيع من الخنازير .

وقال الرجل المخمور فى ارتباك

- إننا لم نقصد شيئاً ، أرجو أن تقبلى اعتذارى ، إننا ندفع ثمن ما نشرب بنقودنا وكذلك تفعل السيدة . صباح الخير !

وأجابت المدرسة .

- صباح الخير .

ونحن نشكرك بكل قلوبنا .

وشربت «ماريا فاسيليفنا» الشاى فى رضاء ، وبدأ وجهها يحمر هى الأخرى ، كـالفلاحين ، وانصـرفت إلى التفكير فى خـشب الوقود وفى الحارس .

ووصل إلى مسمعها الكلام التالى من المائدة المجاورة .

– إنها مدرسة فى فيازوفنا ، ونحن نعرفها ، أنها سيدة طيبة .

– لا بأس بها .

وكان الباب المتحرك يطرق باسـتمرار ، عندما يخرج أحد أو يدخل وماريا فاسـيليفنا تجلس حيث هى ، تفكر دائمـاً فى نفس الأشياء والآلة الموسيـقية تعزف وتعزف وبقع الشـمس كانت على الأرض ، ثم انتقلت من الأرض إلى الحائط ، ثم اختفت نهائياً ووفقاً للشمس كان الوقت بعد الظهر . وكـان الفلاحون على المـائدة المجاورة يسـتعدون للقيـام وتقدم الرجل المخـمور بخطى ثابتة إلى مـاريا وقدم إليهـا يده يصافحهـا وحذا حذوه الرجال الآخرون وخرجـوا الواحد أثر الآخر وطرق الباب الخارجى ثمان طرقات .

وناداها سيمون .

– استعدى يافاسيليفنا

ومن جديد وصلوا رحلتهم فى خطوات متئدة .

وقال سيمون وهو يستدير فى اتجاهها .

- منذ زمن كانوا يبنون هنا مدرسة ، ثم حدث أمر مؤسف .

- ماذا حدث ؟

- يقال أن رئيس المجلس وضع ألف جنيه فى جيبه وأن المسئول عن المدرسة أخذ الألف الأخرى بينما أخذ المدرس خمسمائة جنيه .

- إن المدرسة بأجمعها لا تتكلف سوى ألف جنيه ، ومن الخطأ أن نلطخ سيرة الناس : وهذا كله كلام فارغ .

- لا أعرف وإنما أردت أن أخبرك بما يقوله الناس .

ولكن من الواضح أن «سيمون» لا يصدق ما تقوله المدرسة ، وأن الفلاحين لا يصدقونها ، وأنهم كانا دائماً يعتقدون أن مرتبها أكبر مما ينبغى وأنها تحتفظ بالجزء الأكبر من المال الذى تجمعه من الأطفال كثمن للوقود وأجر للحارس . والمسئول عن المدرسة يعتقد نفس الشئ ، بينما هو نفسه يربح من ثمن الوقود ويتلقى أجراً من الفلاحين لقاء اشرافه على المدرسة دون علم السلطات .

والآن أصبحت الغابة والحمد لله خلفهم ، وبقية الطريق إلى فيازوفيا مسطحة وقد قاربت الرحلة على الانتهاء ، وكان عليهم أن يعبروا النهر ثم شريط القطار ثم تظهر فيازفيا فى الأفق .

وقالت «ماريا فاسيليفنا» «لسيمون» .

- إلى أين تذهب ؟ أسلك الطريق المجاور للجسر اليمين .

- ولم ؟ إننا نستطيع أن نسلك هذا الطريق أيضاً ، فالمـاء ليس عميقاً فى النهر كما تتصورين .

- احترس وإلا أغرقت الحصان .

- ماذا ؟

ورأت ماريا فاسيليفنا العربة ذات الأربع خيول وقالت :

- أنظر أنه هانوف يسوق فى اتجاه الجسر ، أنه هو على ما أظن .

- نعم هو هانوف ، وهكذا لم يجد «باكفيست» فى المنزل ، كان عقل هذا الرجل أشبـه بعقل الخنزير . ليرحمنا الله ! ولمـاذا يأخذ ذلك الطريق ، لماذا ! إن طريقنا أقصـر من الطريق الذى يسلكه بحوالى ميلين .

ووصلت عربة «سيمون» إلى النهـر ، وفى الصيف يكون النهر أشبه بمجرى صغير يمكن عبوره على الأقدام ، وهو يجف عادة فى أغسطس ، ولكنه بدأ الآن بعد فـيضان الربيع عـريضاً ، سريعاً ، مـوحلاً وبارداً ، وعلى الشاطئين وعلى مـقربة من الماء بدت آثار عجلات لعـربات عبرت النهر حديثاً .

وصاح سيمون مخاطباً حصانه «هيا» في غضب وقلق ، وشد اللجام في عنف وحرك كتفيه كما يحرك الطير جناحيه وصاح من جديد «هيا».

وغاص الحصان في الماء حتى ارتفع إلى بطنه ثم توقف ولكنه ما لبث أن تقدم من جديد في صعوبة ، وشعرت «ماريا فاسيليفنا» ببرودة في قدميها .

وقامت واقفة وصرخت في الحصان بدورها «هيا» .

وطلعوا إلى الشاطئ .

وقال سيمون وهو يرخي اللجام .

– ليرحمنا الله .

وكان حذاؤها وساقاها قد غرقا في الماء وكذلك الجزء الأسفل من ثوبها ومن معطفها ، كما ابتل السكر والدقيق وكان هذا هو أسوأ ما في الأمر ولم تستطع ماريا أن تفعل شيئاً ، ضمت يديها في يأس وقالت :

– أوه سيمون سيمون ! كم أنت متعب متعب حقاً . .

وكان الحاجز مقفلاً أمام الشريط ، والقطار يخرج من المحطة ووقفت ماريا عند المعبر تنتظر حتى يمر القطار وهي ترتجف من البرد ، وبدت فيازوفيا في الأفق والمدرسة بسقفها الأخضر ، والكنيسة بصلبانها التي تلتمع في أشعة الشمس الغاربة . وتألقت نوافذ المحطة بدورها ،

وصعد دخان وردى من القاطرة. . . وبدا لها كما لو كان كل شئ يرتجف من البرد .

وهذا هو القطار ، النوافذ تعكس الضوء اللامع كالصلبان على الكنيسة ، والضوء يؤلم عينيها كلما نظرت إلى النوافذ ، وفى عربة من عربات الدرجة الأولى وقفت سيدة ، وتطلعت إليها ماريا وهى تمر بها . أمها ! أى شبه كان لإمها هذا الشعر السخى الجميل ، وهذا الجبين ولفتة الرأس هذه وبوضوح عجيب ولأول مرة انبعثت فى خيالها صورة حية لأمها ، لأبيها ، لأخيها ، لشقتهم فى موسكو ، للسمك الملون فى أحواضه ، لكل شئ بأدق تفاصيله وسمعت صوت البيانو وصوت أبيها وشعرت كما لو كانت هناك ، صغيرة جميلة ، حسنة الملبس فى حجرة مضيئة دافئة بين أهلها ، وفجأة تملكها شعور من السعادة الدافقة ، وضغطت بكفيها على صدغيها فى نشوة ، ونادت بصوت ناعم ، صوت متوسل .

– أمى .

وبدأت تبكى ولم تكن تعرف لم تبكى ، وفى هذه اللحظة بالذات وصل هانوف بمركبته ذاب الخيول الأربع ، وعندما رأته تصورت سعادة دفاقة لم تكن تحلم بوجودها وابتسمت له وأحنت رأسها له كند ، كصديق وبدا لها أن سعادتها تتوهج فى السماء وعلى جوانب الأرض فى النوافذ والأشجار ، لم يمت أبوها ولم تمت ولم تكن فى يوم من الأيام

مدرسة، كان حلماً قريبًا ، حلماً طويلاً ثقيلاً ، وهى الآن قد استيقظت

– «فاسيليفنا اركبى العربة» .

وفى الحال تلاشى كل شئ ، وارتفع الحـاجز ببطء ، ودخلت ماريا فاسـيـليفنا العربة وهى تـرتجف من البرد ، وعبرت العـربة ذات الأربعة خيول خط القطار ، وتبعها سيمون ورفع عامل الإشارة قيمته .

– ها هى فيازوفيا ها نحن قد وصلنا .

٤ - كائن ضئيل

انطون تشيخوف

«أيها السيد المبجل ، الأب والمحسن» ، كان موظف صغير يدعى نفيرازيموف يكتب مسودة خطاب للتهنئة فى عيد الفصح ، «آمل أن تقضى هذا اليوم المقدس ، وأياماً كثيرة آتية ، فى صحة طيبة ، ورخاء ، ولأسرتك أيضاً . .» .

كان المصباح ، الذى كان الكيروسين آخذاً فى التناقص فيه ، يبعث الدخان وتصدر عنه رائحة . وكان ثمة صرصور شارد يجرى على المائدة ، فى فزع قرب اليد التى يكتب نفيرازيموف بها، وبعيداً عن المكتب بغرفتين، كان البواب بارامون ينظف للمرة الثالثة خير حذاء لديه ، وبنشاط كان معه صوت فرشاة التلميع وصوت بصاقه مسموعين فى كل الحجرات .

تساءل نفيرازيموف : «ما عسانى أكتب له أيضاً ، ذلك الوغد ؟ وهو يرفع عينيه إلى السقف المغطى بالسناج .

على السقف رأى دائرة مظلمة - هـى خيال ظل المصباح - وتحـتها كان الأفريز المترب ، ومن تحته الجائط ، الذى كان مصبوغاً - ذات يوم - بلون طينى ضـارب إلى الزرقة . ولاح له المكتب مكـاناً موحشـاً إلي الحد الذى شعر معه بالأسف لا من أجل نفـسه فحسب ، وإنما حتى من أجل الصرصور .

وفكر قائلاً وهو يتـمطى : «عندما أترك العمل ، سأمـضى بعيداً ، ولكنه سيظل يعمل هنا ، طوال حياته الصـرصورية . إنى أشعر بالسأم ! هل أنظف حذائى ؟» .

وإذ تمطى نفيرازيمـوف مرة أخرى ، توجه متـثاقلاً ، بكسل ، إلى غرفة البـواب . كان بارامون قد انتهى من تنظيف حـذائه . وإذ كان يمد إحـدى يديه ، ويمسك بـالفرشـاة فى اليـد الأخرى ، وقف عند زجـاج النافذة المفتوحة يستمع .

وهمس لنفيرازيموف ، ناظراً إليـه بعينين منتبهتين ومفـتوحتين على سعتهما : «لقد بدءوا يدقون الأجراس فعلاً» .

فأدنى نفـيرازيموف أذنه من زجـاج النافذة المفـتوحة ، واسـتمع ، سبـحت دقات أجراس عيـد الفصح فى الغرفـة ، مع هبة من هواء الربيع المـتجدد . وامـتزج رنيـن الأجراس بضـوضاء العـربات . وفوق عـماء الأصوات ارتفعت النبرات السريعة ، من طبقة التينور ، صادرة عن أقرب كنيسة ، وكذلك ضحكة عالية ثاقبة .

«أى عدد من الناس ! تنهد نفيرازيموف ، وهو ينظر إلى الشارع ، حيث كانت ظلال الرجال تمر ، الواحدة فى أثر الأخرى ، تحت مصابيح الإضاءة . «إنهم جميعاً يسرعون إلى صلاة منتصف الليل . . . لابد أن يكون زملاؤنا قد شربوا الآن ، تستطيع أن تكون على يقين من ذلك ، وأنهم يتمشون فى المدينة . أى قدر من الضحك ، وأى قدر من الحديث! إننى الوحيد السيئ الحظ ، إذ يتعين علىّ أن أجلس هنا ، فى مثل هذا اليوم . وأنه ليتعين على أن أفعل ذلك كل سنة !» .

حسنًا ، لا أحد يجبرك على القيام بهذه الوظيفة . . فلم يكن دورك يقضى بأن تعمل اليوم ، بيد أن زاستوبوف قد استأجرك لتحل محله . وفى الوقت الذى يستمتع فيه الآخرون بوقتهم ، تؤجر نفسك ، إنما هو الجشع !» .

«يا للشيطان ! ليس هناك الكثير ، حتى يشعر المرء بالجشع عليه ، إنما هو إنهاء للصيام ، وأن تشرب وتتناول بعض العشاء . ثم تذهب إلى النوم . إن المرء ليجلس إلى المائدة ، وثمة كعكة لعيد الفصح ، وبراد الشاى يفح ، وثمة شئ صغير جذاب إلى جوارك . . . إنك تشرب قدحاً ، وتربت عليها تحت الذقن ، والأمر كله من أعلى طراز . . تشعر بأنك شئ ما . . . اتش ! لقد خلطت بين الأشياء ! انظر إلى تلك الفتاة اللعوب ، وهى تسير فى عربتها ، بينما يتعين على أن أجلس هنا ، وأتفكر» .

– لكل منا نصيبه فى الحياة يا إيفان دانيليتش . بحق الله ، سترقى ، وتركب عربة ، فى يوم من الأيام .

– أنا ؟ كلا يا أخى . ليس هذا محتملاً . لن أصل إلى أكثر من لقب، حتى ولو حاولت ، حتى أنفجر . فلست بالرجل المتعلم .

– إن رئيسنا ليس بالمتعلم أيضاً ، ولكنه . .

حسناً . ولكن الرئيس سرق مائة ألف ، قبل أن يحصل على منصبه. وإن له من الأخلاق والسلوك ما يختلف عن أخلاقى وسلوكى تمام الاختلاف ، أيها الأخ . فحين تكون للمرء أخلاقى وسلوكى ، لا يستطيع أن يحقق الكثير ! ثم يا له من لقب وغد أحمله : نفيرازيموف ! إنه وضع ميئوس منه فى الحقيقة . على المرء أن يستمر على هذا الوضع ، أو يشنق نفسه .

تحرك مبتعداً عن النافذة وسار متعباً فى أرجاء الحجرات . وأخذ رنين الأجراس يتعالى على نحو مطرد . ولم يكن هناك ما يدعو إلى الوقوف قرب النافذة كى تسمعه . وكلما أزداد تمكنا من سماع الأجراس ، وازداد ضجيج العربات ، لاحت له الجدران الطينية والإفريز الملطخ بالسناج ، أشد قتامة ، وازدادت كمية الدخان المنبعث من المصباح .

«إن كل ما يعطيه لى لا يجاوز روبلين ، ورباط عنق ، كمنحة إضافية . . إنما هو الفقر ، لا الجشع . وإنه ليكون من اللطيف الآن ،

كمـا تعلم ، أن تمـضى مع شلة إلى الصلاة . . هل أترك هـذا الأمر ، وأغادر المكتب ؟ «كذلك فكر نفيرازيموف .

غير أن مثل هذا الفرار لم يكن وعـدا بشئ جدير بأن يحصل عليه . فإن نفيـرازيموف ، بعد أن يخرج من مكتبه ويجـول فى أنحاء المدينة ، كان خليقـاً بأن يعود إلى مسكنه ، وفى مـسكنه كان الجو أشد قـتامة ، وأبعث على الحزن ، مـما هو الشأن فى المكتب . وحـتى لو فرضنا أنه تمكن من أن يقضـى ذلك اليوم على نحو مـبهج ، وبراحة ، فـما الذى ينتظره بعد ذلك؟ لاشئ سـوى الحيطان الرمادية نفسـها ، ونفس العمل الذى هو مضطر إليه اضطراراً ، وخطابات التحية .

وقف نفيرازيموف ساكناً فى منتصف المكتب ، وغاص فى التفكير . كان التوق إلى حياة جديدة أفضل يقرض قلبه ، بوجع لا يحتمل . وكان يشعر بتـوق حار إلى أن يجد نفسـه فجأة فى الشارع ، ويمـتزج بالجمع الحى، ويشـترك فى الاحتـفال الجـاد ، الذى كانت هذه الأجـراس كلها تقرع من أجله ، وهذه الـعربات تصدر أصـواتها . تاق إلى ما عـرفه فى طفولتـه- دائرة الأسرة ، ووجـوه أهله المحـتفلة ، والقـماش الأبيض ، والنور ، والدفء . . . وفكر فى العـربة التى كـانت السـيدة ، لتـوها ، تركبهـا ، والمعطف الذى كان كبـير الكتبة بالغ الأناقة فـيه ، والسلسلة الذهبية التى تزين صدر السكرتير . . واتجه تفكيره إلى فراش دافئ ، من طراز ستـانيسـلاف ، وفى حذاء جديد ، وزى بلا ثقـوب عند المرفـقين . . . فكر فى هذه الأشياء كلها لأنه لم يكن يملك شيئاً منها .

وفكر قائلاً : «هل أسرق ؟ إنه حتى لو كانت السرقة أمراً سهلاً ، فإن الاختفاء هو الشئ الصعب ، إن البشر يفرون إلى أمريكا - فيما يقولون - ربما سرقوه ، غير أن الشيطان يعلم أين عسى تلك الأمريكا المباركة أن تكون . لابد للمؤمن أن يكون متعلماً ، حتى ليسرق ، فيما يبدو» .

وخفت صوت الأجراس . ولم يسمع سوى ضوضاء العربات البعيدة وسعلة بارامون بينما أزداد حبوطه وغضبه حدة ، وأضحيا لا يحتملان . ودقت ساعة المكتب الثانية عشرة والنصف .

- هل أكتب تقريراً سرياً عنه ؟ لقد فعل بروشكين ذلك ، وارتقى بسرعة .

جلس نفيرازيموف إلى مكتبه وتفكر . كان المصباح الذى نضب فيه الكيروسين يدخن بعنف ، ويهدد بالأنطفاء . وكان الصرصور الشارد مازال يجرى على المائدة ، دون أن يجد مكاناً يستريح فيه .

«يستطيع المرء دائماً أن يرسل تقريراً سرياً ، ولكن كيف يكتبه ؟ أريد أن أضمنه كل أنواع التلميحات والإيعازات ، كما فعل بروشكين ، ولكنى لا أستطيع أن أفعل ذلك . ولو أنى فعلت أى شئ ، لكنت أول من يقع فى مشكلة بسببه . إنى حمار . اللعنة على !» .

وإذ راح نفيرازيموف يقدح زناد ذهنه باحثاً عن سبيل للهرب من وضعه الميئوس منه ، حدق إلى المسودة التى كتبها . كان الخطاب

مكتوباً إلى رجل يخافه ويكرهه بجماع قلبه ، وكان يحاول - طوال السنوات العشر الماضية - أن يعتصر منه وظيفة مرتبها ثمانية عشر روبلا فى الشهر، بدلاً من وظيفته التى يتقاضى عنها ستة عشر روبلاً .

«سأعلمك كيف تجرى هنا ، أيها الشيطان» . وضرب الصرصور ، بحركة شريرة بباطن كفه ، إذ شاء سوء حظه أن تقع عليه عيناه . «أيها القذر !» .

فسقط الصرصور على ظهره ولوى قدميه فى قنوط . فأخذه نفيرازيموف من إحدى رجليه ، ورمى به فى المصباح . فتوهج المصباح وأحدث صوتاً .

وشعر نفيرازيموف بأنه أحسن حالاً .

٥ - الشـــقاء

انطون تشيخوف

الشفق يؤذن باقتراب الليل ، وندف كـبيرة من الثلج تتطاير فى بطء حول مصابيح الطريق التى أضاءت لتوها ، وتكسو السقوف وظهور الخيل والأكتاف وأغطيـة الرؤوس بطبقة رفيـعة ناعمة . وقائـد الزحافة ، أيونا يوتابوف أبيض من قمة رأسه إلى قدمـيه . أبيض كالشبح . يجلس على مقعد القيادة دون أن يتحرك ، منحنى كـأقصى ما يستطيع الجسد البشرى أن ينحنى . ويبدو أنه لو تساقط عليه تـيار ثلجى منتظم لما فكر حتى إذ ذاك فى ضرورة إزاحة الثلج عن جسده . ومهرتـه الصغيرة بيضاء وساكنة أيضاً ، وهى تبدو بسكونها وبحدة خطوط جسمـها وبقوائمها الرفيعة التى تشبه العصا فى استقامتها أشبه ما تكون بلعبة من لعب الأطفال . وأغلب الظن أنها كانت غارقة فى التفكير ، فأى مخلوق ينتزع من المحراث ومن الحـقول المنبـسطة التى ألفتـها عـيناه ويرمى به فى هذه البـؤرة المليئـة بالأضواء المخيفة ، وبالضـجة التى لا تنقطع وببشر فى عجلة من أمرهم ، أى مخلوق هذا شأنه لابد وأن يفكر .

وكان قد مضى وقت طويل دون أن يتحرك أيونا ومهرته ، لقد خرجا من الأسطبل وقت العشاء ومع ذلك لم يركب الزحافة راكب واحد ، لكن ظلال الليل تهبط الآن على المدينة ، ولون مصابيح الطريق الشاحب يتحول إلى ضوء وهاج ، وضجة الطريق تشتد ويسمع «أيونا» .

– زحافة إلى فيبر جسكايا . . . زحافة :

وبنقبه «أيونا» ويرى من خلال عينيه المغطاه بندف الثلج ضابطاً فى معطف عسكرى وغطاء للرأس .

ويكرر الضابط كلامه «إلى فيبر جسكايا – هل أنت نائم ؟ إلى فيبر جسكايا» .

ويشد «أيونا» اللجام دلالة على الموافقة فتتطاير قطع الثلج من على ظهر المهرة ومن على أكتافها . ويركب الضابط الزحافة ، ويقرقع قائد الزحافة ويلوح بالسوط بحكم القادة لا بحكم الضرورة وتشد المهرة عنقها هى الأخرى ، وتلتوى ساقاها الشبيهتان بالعصى وتبدأ السير فى تردد .

وفى الحال يسمع «أيونا» صوتاً يصيح به ، صوتاً ينبعث من كتلة من الظلام تتراقص أمام عينيه «إلى أين تتجه»، إلى أين تتجه بحق الشيطان؟ ألزم يمينك أيها الرجل .

ويقول له الضابط فى غضب «إنك لا تعرف القيادة ، ألزم اليمين» ويلعنه سائق يسوق عربة وينظر إليه أحد المشاة فى غضب ويزيح الثلج

عن كمـة حين يصطدم ذراعه بأنف الحـصان وهو يعبر الطريق ويتـحرك «أيونا» على مقعد القيادة كما لو كان يجلس على شوك ويرفع كتفيه ويدير عينيه فى محجريهما كما لو كان غائباً عن الوعى ، كما لو كان لا يعرف أين هو ولم وجد فى هذا المكان .

وقال الضابط متفكها «يالهم من أشرار ، أنهم يحاولون ما بوسعهم لكى يصطدمـوا بعـربتك ولكى يقـعوا تحت حـوافـر حصـانك ، أنهم يتعمدون ذلك تعمداً» .

ونظر «أيونا» إلى الراكب وحركة شفـتيه وكان من الواضح أنه يريد أن يقول شيئاً . ولكنه لم يقله .

وسأله الضابط - ماذا ؟

وابتسم «أيونا» ابتسامة كئيبة وشد عنقه وخرج صوته خشناً ثقيلاً .

- ابنى . . . ابنى مات هذا الأسبوع ياسيدى .

- هيه - مات بماذا ؟

وأدار «أيونا» جسمه بأجمعه إلى الراكب وقال :

- من يدرى ! لابد وأنهـا الحمى . رقد فى المـستشـفى ثلاثة أيام ثم مات . . إرادة الله .

ومن الظلمة ارتفع صوت «استدر أيها الشيطان ، هل جننت أيها الكلب العجوز ، انظر إلى أين أنت متجه !»

وقال الضابط :

«أسرع ، أسرع ، لن نصل إلى هناك إلا فى صباح الغد إذا سقت بهذا البطء !»

وشد سائق الزحافة عنقه من جديد وارتفع عن مقعده ، وقرقع بسوطه . واستدار عدة مرات لينظر إلى الضابط ، ولكن الأخير أبقى عينيه معلقتين ، وكان من الواضح أنه لا يرغب فى الاستماع إليه وبعد أن أنزل «أيونا» راكبه فى فيبر جسكايا ، توقف عند مطعم ومن جديد انكمش فى مقعده . . . ومن جديد لونه الثلج الأبيض ولون مهرته ، ومرت ساعة وبعدها ساعة .

واتجه إلى الزحافة ثلاثة شبان منهما طويلاً القامة رفيعان والثالث أحدب قصير يتمايلون ويدبون بأحذيتهم الثقيلة على الرصيف .

وصاح الأحدب :

– إلى كوبرى البوليس أيها السائق ، ثلاثتنا . . . بعشرين كوبيك .

وشد «أيونا» اللجام وقرقع لحصانه ، لم تكن العشرون كوبيك أجراً مناسباً ، ولكنه لم يفكر فى ذلك . لم يعد الأمر يهمه الآن ، روبيل أو خمسة كوبيك سيان مادام معه راكب . وصعد الشبان الثلاثة إلى العربة

وهم يتزاحمون ويتشاتمون ويحاولون أن يجلسوا كلهم فى نفس الوقت ، ولكن كان لابد من تسوية المسألة ، فلم يكن المقعد يتسع إلا لإثنين وبعد الكثير من الاختلاف واللعنات اتفقوا على أن يقف الأحدب لأنه أقصرهم .

- «حسناً هيا بنا» .

قال الأحدب بصوته المتقطع وقد استقر فى مكانه ولفحت أنفاسه عنق «أيونا» . ثم أضاف .

- بسرعة ، يالها من عربة ياصديقى عربتك هذه ! أنك لا تستطيع أن تجد فى بترسبرج بأجمعها عربة أسوأ منها .

وضحك «أيونا» - هى هى.. هى هى ! أنها ليست مدعاة للفخر .

- ليست مدعاة للفخر حقاً ، حسناً أسرع إذا ، هل ستقود بهذا البطء طيلة الطريق ! هيه هل أضربك على قفاك .

وقال واحد من الآخرين .

- أن الصداع يؤلمنى . بالأمس شربت أنا وفاسكا أربع زجاجات من البراندى فى منزل دوكماسوف .

وقال الثالث بغضب .

- أنا لا أستطيع أن أفهم لم تقول هذا الهراء . إنك تكذب بطريقة مخجلة .

- أقسم بشرفى أنها الحقيقة .

- إذا كانت القملة تسعل فأنت تقول الحقيقة .

وفتح أيونا فمه فى شبه ابتسامة وقال :

- هى هى شبان يمرحون وصاح الأحدب فى غضب .

- ليأخذك الشيطان هل ستسرع أم لا أيها الأجرب ، أهذه طريقة قيادة! اضربها بالسوط أيها الرجل ، اللعنة اضربها بقوة .

وأحس أيونا بالأحدب خف ظهره يدفعه وبصوته الغاضب يرتعش وهو يوجه اللعنات إليه . وشيئاً فى شئ يزول شعور أيونا بالوحدة وتقل وطأته فى قلبه . ويستمر الأحدب يلعنه حتى يبدأ يضحك على فكاهة ألقاها أحد زملائه ويستمر يضحك حتى يداهمه السعال . ويبدأ زميلاه الطويلان يتحدثان عن فتاة اسمها ناديا بتروفنا ، وينظر أيونا إليهم ، وينتظر حتى تسود فترة صمت قصيرة فيلتفت إليهم من جديد ويقول :

- هذا الأسبوع . . . ابنى هذا الأسبوع ابنى مات .

ويتنهد الأحدب ويمسح شفتيه عقب السعال ويقول :

- كلنا سنموت والآن اسرع اسرع ، أنا وأصدقائى لا نستطيع أن نتحمل هذا الزحف البطئ ، متى ستوصلنا إلى هناك ؟

- امنحه قليلاً من التشجيع . . صفعة على قفاه .

- أتسمع أيها الأجرب العجوز ، سأجعلك نشيطاً ، لو احترم الإنسان أمثالك فخير له يمشى على قدميه ، أتسمع أيها الرجل ؟ أم لعلك لا تهتم على الإطلاق بما نقول .

وتدوى صفعة على قفا أيونا يسمعها أكثر مما يشعر بها .

ويضحك (هى هى شبان يمرحون . . ليمنحم الله الصحة) .

ويسأله أحد الشابين الطويلين .

- هل أنت متزوج أيها السائق ؟

- أنا ؟ هى هى شبان يمرحون . . . أن الأرض الرطبة هى زوجتى الوحيدة الآن هى هو هو ، أى القبر هاهو ابنى يموت وأنا أعيش ، أنه شئ غريب ، لقد طرق الموت الباب خطأ وبدلاً من أن يأخذنى أخذ أبنى .

واستدار أيونا ليخبرهم كيف مات ابنه ، ولكن عند هذا تنهد الأحدب بارتياح وأعلن أنهم وصلوا أخيراً والحمد لله .

وبعد أن أخذ أيونا نقوده ظل يحدق طويلاً فى الشبان الثلاثة ، وهم يختفون فى المدخل المظلم ، ومن جديد أصبح وحيداً ، ومن جديد لم يملك سوى الصمت .

وعاد الشقاء الذى هان لفترة قصيرة ، عاد من جديد يمزق قلبه أقسى مما كان يمزقه من قبل .

وفى نظرة قلق وألم بدأت عينا أيونا اللتان لا تستقران فى مكانهما ترقبان الجماهير وهى رائحة غادية على جانبى الطريق ، ألا يستطيع أن يجد بين هؤلاء الآلاف من يستمع إليه ، ولكن الجماهير كانت تمر به لا تشعر بشقائه . . وشقاؤه عميق لا حدود لعمقه ولو انفجر قلب أيونا وفاض شقاؤه لأغرق الدنيا بأجمعها فيما يبدو ، ولكن أحداً ما لا يراه . فقد وجد الشقاء مخبأ فى مكان تافه ، مكان لا يمكن أن يصل إليه إنسان بشمعة فى ضوء النهار .

ويرى أيونا بوابا يحمل لفة ويقرر أن يوجه الحديث إليه ويسأله ؟

- ماهى الساعة الآن ياصديقى ؟

- الساعة قاربت العاشرة . . . لماذا توقفت هنا ؟ ابتعد عن هذا المكان.

ويبتعد أيونا عن المكان خطوات ويحنى جسمه ويستسلم للشقاء . ويشعر أن لا فائدة من الاتجاه إلى الناس ولكن قبل أن تنقضى خمس دقائق يعتدل فى جلسته ويهز رأسه كما لو كان يشعر بألم حاد ، ويشد اللجام . لا إنه لا يستطيع أن يتحمل أكثر مما تحمل .

ويقول فى نفسه ، إلى الأسطبل . . إلى الأسطبل .

وتسرع مهرته الصغيرة كما لو كانت تعرف أفكاره . وبعد ساعة ونصف يجلس أيونا إلى جانب موقد قذر قديم وعلى الموقد وعلى الأرض

وعلى أرائك خشبية يغط أشخاص فى النوم والهواء ثقيل ملئ بالروائح العفنة ، وينظر أيونا إلى النائمين ويحك جلده ، ويندم على أنه عاد إلى البيت مبكراً .

(لم أكسب ما يكفى حتى لثمن الشوفان) ، وهذا هو السبب فى أننى أشعر بذلك الشقاء ، فالرجل الذى يعرف كيف يقوم بعمله الذى أكل ما فيه الكفاية وأكل حصانه ما فيه الكفاية يشعر بالراحة ومن ركن من الأركان ينهض سائق سابق ، ويسلك حلقه والنوم يغلب عليه ويتجه إلى مكان المياه .

ويسأله أيونا :

- هل تريد أن تشرب ؟

- يبدو هذا .

- بالعافية . . ولكن ابنى مات يازميلى ، أتسمع ؟ هذا الأسبوع فى المستشفى . . . أنه أمر غريب . . .

ونظر أيونا ليرى الأثر الذى تركته كلماته ولكنه لم ير لكلماته أثراً كان الشاب قد غطى رأسه واستغرق فى النوم .

وتنهد الرجل العجوز وحك جلده ، كان به عطش إلى الكلام كعطش الشاب إلى الماء . هاهو أسبوع قد أوشك أن ينصرم منذ مات ابنه وهو لم يحادث أحد بعد حديثاً حقيقياً . أنه يريد أن يتحدث عن

الموضوع حـديثاً جدياً مرسوماً . يريد أن يحكى كـيف مرض ابنه وكيف تعذب ، ومـاذا قال قـبل أن يموت وكيف مـات . . . إنه يريد أن يصف الجناز وكيف ذهب إلى المـستشفى لاستلام مـلابس ابنه . ومازالت لديه ابنته أنيـسيا فى الريف وهو يريد أن يتـحدث عن أنيسـيا بدورها ، ونعم لديه الآن الكثيـر عنه . وينبغى أن يتنهـد وأن يجد من يستـمع إليه وأن يعـجب من الزمن وأن يرثى . . . ولعله مـن الأفضل أن يتـحـدث إلى النساء فهن . يدمعن عند الكلمة الأولى رغم أنهن مخلوقات حمقوات .

قال أيونا لنفسه .

– دعنا نخرج ونلقى نظرة على المهرة ، فى الوقت متسع للنوم دائماً ، لا تخف فستنام بما فيه الكفاية .

ولبس أيونا مـعطفـه وذهب إلى الأسطبل حيـث تقف المهـرة وهو يفكر فى الشوفان وفى العشب وفى الجو . . وهو لا يستطيع أن يفكر فى ابنه وهو وحيد . . . من الممكن أن يتـحدث عنه مع شخص ما ، ولكن التفكير فيه وتصوره ألم محض لا يمكن للإنسان تحمله .

وسأل أيونا مهرته عندما رأى عينيـها اللامعتين (هل تأكلين ؟ حسناً ، كلى ، كلى . . . أن لم نسـتطيع أن نكسب ما يكفى للشـوفان فلنأكل العشب . نعم . . . لقد كـبرت على قيادة العـربات . . . كان ينبغى أن يكون ابنى هو الذى يقـود لا أنا . . كان قـائد بمـعنى الكلمة . . كـان ينبغى أن يعيش . . .) ويسكت أيونا وهلة ثم يستمر فى كلامه .

- (هذه هى المسألة يافتاتى العزيزة . لقد ذهب كوزما أيونتش فى وداعا . . . ذهب ومات دون سبب ما . . والآن تصورى أن أنت مهرة صغيرة ، وكنت أنت أم هذه المهرة الصغيرة . . . وفجأة ذهبت نفس هذه المهرة الصغيرة وماتت ستأسفين لموتها أليس كذلك ؟) واستمرت المهرة الصغيرة تمضغ وتنصت ، وتتنفس بالقرب من يدى سيدها وتحركت لو اعج أيونا فأخبر المهرة بالقصة الكاملة . . . .

٦ - موت موظف

انطون تشيخوف

فى إحدى الليالى الصافية جلس الكاتب الفائق إيفان ديمترتش تشرفياكوف على مقعد من مقاعد الصف الثانى يستمتع بمشاهدة أوبرا «أجراس كورنفيل» مستعينًا بإحدى النظارات المقربة .

وراح يشاهد المسرح وهو يرى فى نفسه أنه أسعد إنسان فى الوجود وعلى حين غفلة . لقد صارت عبارة «على حين غفلة» هذه من العبارات الدارجة ، ولكن كيف يتأتى للمؤلفين تجنبها والحياة ملأى بالمفاجآت ؟ على حين غفلة تغضن وجهه ودارت عيناه إلى أعلى وتعلقت أنفاسه . . وأدار وجهه بعيدًا عن منظاره وقفز من مقعده ، وقذف بالصوت المعهود «تشوم» أى أنه عطس . وفى هذا الحين كان لكل واحد الحق فى أن «يعطس حيث يريد . ولم يكن أحد من الفلاحين ومفتش البوليس ، بل وأعضاء مجلس البلاط يمنع نفسه من العطس ، كان لكل شخص أن يعطس ، أى شخص ، ولم يشعر تشرفياكوف بأية غضاضة فيما فعل ، فربت بمنديله على أنفه ثم أخذ ينظر فيما حوله ، كأى شخص مهذب ، ليرى ما إذا كان قد ضايق أحدًا بعطاسه . وفى هذه اللحظة شعر بشىء

من الحرج ، إذ رأى رجلاً عـجوزاً قصير القـامة يجلس فى الصف الأول على المقعد الذى أمامه بالضبط ، وقد راح يمسح قفاه وجمجمته الصلعاء بقفازه ويزمجر ببعض الكلمات ، وعرف تشرفياكوف فى هذا الرجل الهرم بريجلوف القائد المدنى لوزارة المواصلات .

وقال فى نفسه : «لقـد عطست عليه ! نعم أنه ليس رئيسى ، ولكنه عمل يدل على التأخر الشديد . لابد أن أعتذر إليه» .

ومال تشـرفياكـوف إلى الأمام مصـدرًا سعلة خـفيفـة وقال فى آذن القائد :

- أرجو عفوك : يا صاحب السـعادة . فلقد عطست . . ولم أقصد أن . . وقاطعه القائد قائلاً : «لا تذكر شيئًا» .

وحاول تشرفياكوف أن يواصل اعتـذاره فقال «سامحنى» فأنى . . لم يكن ذلك من قصد !» وعاجله القائد بقوله :

«ألا تستطيع الركون إلى الهدوء من فضلك ! دعنى أنصت !» .

فشـعر تشرفـياكـوف بشىء من الإحراج ، وابتسم ابتـسامـة خجلة وحاول أن يوجه التفاته إلى المـسرح . وبدأ يشاهد الممثلين . ولكنه لم يعد يشعر بأنه أسعد إنسان فى الوجود ، إذ أنه ظل فريسة لوخز الضمير وفى فتـرة الراحة ذهب إلى حـيث يستريح القـائد ، وهناك توقف بعض الوقت . وفى نهاية الأمر تغلب علـى حالة الخجل المستوليـة عليه فراح يتمتم قائلاً :

«لقد عطست عليك يا صاحب السعادة ... سامحنى ... فأنت تعلم ... إنى لم أقصد ...» .

فنظر إليه بريجالوف وقد تدلت شفته السفلى من شدة التبرم ثم قال: «أوه ! حقا ، لقد نسيت ذلك ، ألا تريد أن تنصرف ؟» .

وانصرف تشرفياكوف وهو يحملق بنظرة ملؤها الريبة فى اتجاه القائد، ويقول فى نفسه «يدعى أنه نسى» ولكنى أخشى تلك النظرة التى تنبعث من عينيه . إنه لا يريد أن يكلمنى . فلابد من أن أشرح له إنى لم أكن أقصد أن ... وأن هذه حاجة طبيعية ، وإلا ظن أن أردت أن أبصق عليه . وحتى إذا لم يظن ذلك الآن ، فربما فيما بعد ! .

وحين وصل تشرفياكوف إلى منزله ، أخبر زوجته بسلوكه المشين . وبدأ له أن زوجته قد تلقت قصته بشىء من الخفة التى لا تليق . نعم إنها إرتاعت أول الأمر ، ولكنها لما تحققت من أن بريجالوف لم يكن «رئيسًا» عاد إليها اطمئنانها وقالت : أعتقد أنه يجب عليك ، بالرغم من ذلك ، أن تذهب للاعتذار إليه ، وإلا ظن أنك لا تعرف كيف تسلك سلوك الناس المهذبين ، فى المجتمعات .

فأجاب بقوله : «هذا هو الواجب ! وقد حاولت الاعتذار له ، ولكنه كان غريب الأطوار . فلم ينطق بكلمة واحدة ذات معنى . هذا إلى أنه لم يكن هناك وقت كاف للكلام» .

وفي اليـوم التالى لبس تشـرفـياكـوف حلة الاحتـفالات الرسـميـة الجديدة، وقص شعره ثم ذهب إلى بريجالوف ليبرر له سلوكه . وكانت غرفة الاستقبال الخاصة بالقائد تغص بذوى الشكاوى ، وكان القائد نفسه هناك يتلقى شكاواهم . وبعد أن ناقش عـدداً صغيراً منهم رفع عـينيه فى وجه تشرفيـاكوف ، فبدأ يقول : «فى الليلة الماضـية ونحن بالأركاديا . إذا كنت لا تزال تذكر ، يا صاحب السعـادة . . . عـ . . . عطست . . . و . . . و . . . حدث . . . أن . . . أرجو . . . .

ورد عليه القـائد متـأففًا : «يا للحمـاقة!» . ثم اتجـه إلى الشخص التالي وسأله . . . «ماذا يمكن أن أعمل من أجلك ؟» .

ولما انتهى القائد من النظر فى آخر شكوى ونهض ليعود إلى جناحه الخاص ، تبعه تشرفياكوف وهو يتمتم . «عفوك يا صاحب السعادة ! كل مـا فى الأمـر أن الندم الذى يشـعـر به قـلبى قـد جـرأنى على إزعـاج سعادتك . . .» .

فنظر إليه القائد نظرة من هو علي وشك الصياح ، وأزاحه بيده وهو يقول : «إنك تستهزء بى أيها السيد !» ثم أغلق فى وجهه الباب .

فانطلق تشرفـياكوف ، وهو يقول فى نفسه : تسـتهزىء به ! آنا لا أرى فى ذلك ما يدعو إلى الاستـهزاء ، أيمكن ألا يكون قد فهم بالرغم من أنه قائد ؟ حسن جـدًا لن أزعج هذا السيد الرقيق باعـتذراتى بعد الآن

وليستحوذ عليه الشيطان ! سأكتب إليه خطاباً ، ولن أعود إلى الذهاب إليه ! لن أعود ، وهذا كل ما فى الأمر .

كانت هذه فكرة تشرفياكوف وهو فى طريقه إلى منزله . . . ولكنه لم يكتب الخطاب . فقد راح يفكر ويفكر دون أن يستطيع تسطير كلمة واحدة . لذلك كان لزامًا عليه أن يذهب إلى القائد منذ الغد لكى يضع الأمر فى نصابها .

ولم يكد يرى القائد يلقى نحوه نظرة متسائلة حتى انبرى يقول : «ياصاحب السعادة ، لقد جرؤت على إزعاجك بالأمس ، لا لكى أضحك منك ، كما ظننت سعادتك ، بل لأقدم إليك اعتذارى عن إساءتى إليك بالعطس . . أما عن الضحك منك ، فإنى لم أفكر فى شىء من هذا قط وكيف لى أن أجرؤ على ذلك ! إننا لو وضعنا فى أذهاننا أن نضحك من الناس لما بقى هناك أى احترام . . . أى احترام للرؤساء» .

فصاح فيه القائد بحدة ، وكل كيانه يهتز من الغضب : «أخرج!» .

وتمتم تشرفياكوف قائلاً ، والخوف يكاد يصعفه : «أرجو عفوك» .

فأخذ القائد يضرب الأرض بقدمه ويقول مكرراً : «أخرج !» .

وشعر تشرفياكوف بأن شيئًا ما قد انشق فى داخله . ولم يسمع شيئًا ولم ير شيئًا وهو منطلق فى طريقه إلى الباب ، وخرج إلى الشارع وراح

يهـيم على وجهـه حتى وصل إلى منزلـه بطريقة آليـة ، فاسـتلقى على الأريكة . كما هو بحلته الرسمية ، ومات .

٧ - العملاق الاتانى

اوسكار وايلد

فى كل أصيل وإذ كان الأطفال يعودون من مدرستهم ، اعتادوا أن يذهبوا ويلعبوا فى حديقة العملاق . كانت حديقة كبيرة جميلة ذات عشب أخضر رقيق ، وهاهنا وهناك فوق العشب كانت توجد أزهار جميلة كالنجوم وكانت توجد أثنتا عشرة شجرة خوخ تتفتح فى الربيع عن أزهار رقيقة وردية اللون ولؤلؤية ، وفى الخريف كانت تنتهج فاكهة غنية . كانت الطيور تجلس على الأشجار وتصدح بصوت بالغ العذوبة إلى الحد الذى اعتاد الأطفال معه أن يتوقفوا عن ألعابهم لكى يستمعوا إليها . وكانوا يتصايحون ويقول بعضهم لبعض «ما أسعدنا هنا !» .

وذات يوم عاد العملاق . كان يزور صديقه الغول الكورنى وكان قد بقى فى زيارته سبع سنوات . وبعد أن انتهت هذه السنوات السبع كان قد قال كل ما كان يريد أن يقوله لأن حديثه كان محدوداً . وقرر أن يعود إلى قلعته . وحين وصل إليها رأى الأطفال يلعبون فى الحديقة .

فصاح بصوت بالغ الخشونة : «ماذا تصنعون هنا ؟» فتراكض الأطفال بعيداً . قال العملاق «إن حديقتى ملك لى . يستطيع أى امرئ أن يفهم ذلك ، فلن أسمح لأحد بأن يلعب فيها عدای . وهكذا بنى حائطاً عالياً حولها وعلق عليها لافته :

«المتعدون سيقعون تحت طائلة العقاب» .

لقد كان عملاقاً بالغ الأنانية . والآن لم يعد للأطفال المساكين مكان يلعبون فيه . لقد حاولوا أن يلعبوا على الطريق ولكن الطريق كان متربا جداً ومليئاً بالأحجار الصلبة فلم يعجبهم واعتادوا أن يهيموا على وجوههم حول الحائط المرتفع عندما تنتهى دروسهم وأن يتحدثوا عن الحديقة الجميلة التى فى الداخل وان بعضهم يقول للبعض الآخر : «كم كنا سعداء هناك !» .

ثم أقبل الربيع . فى كل أرجاء الأقليم كان ثمة أزهار صغيرة وأطيار صغيرة ولكن الشتاء ظل باقياً فى حديقة العملاق الأنانى وحدها . ولم تأبه الطيور بأن تصدح فيها بالغناء حيث أنه لم يكن هناك أطفال . ونسيت الأشجار أن تزدهر . وذات مرة أطلت زهرة جميلة برأسها من بين العشب غير أنها عندما أبصرت اللافتة اشتد حزنها على الأطفال إلى الحد الذى انزلقت معه عائدة إلى الأرض مرة أخرى وأخلدت إلى النوم . أما الأشخاص الوحيدون الذين سروا فقد كانوا الثلج والصقيع . كانا

يتصايحان : «لقد نسى الربيع هذه الحديقة وعلى ذلك سنعيش هنا على مدار السنة» .

كسى الجليد العشب بمعطفه الأبيض الكبير ولون الصقيع جميع الأشجار باللون الفضى . ثم دعيا ريح الشمال إلى أن تبقى معهما فجاءت. كانت ريح الشمال متسربلة بالفراء ، وكانت تزمجر طوال اليوم حول الحديقة وتحطم أوعية المداخن وكانت تقول : «هذه بقعة تبعث على البهجة . ولابد من أن تطلب إلى البرد أن يزورنا» . وهكذا جاء البرد . وفى كل يوم ، وطوال الثلاث ساعات ، كان يقعقع على سقف القلعة إلى أن حطم أغلب ألواحها الأردوازية ثم ركض حول الحديقة بأسرع ما يمكن . كان يلبس ثوباً رمادياً وكانت أنفاسه كالثلج .

كان العملاق الأنانى يقول : «لست أستطيع أن أفهم السبب فى أن الربيع يأتى متأخراً على هذا النحو وهو يجلس إلى النافذة وينظر إلى حديقته البيضاء الباردة : «آمل أن يحدث تغيير فى الطقس . .» .

بيد أن الربيع لم يأت قط ولا الصيف . وسرعان ما منح الخريف فاكهة ذهبية لكل حديقة ، ولكنه لم يمنح شيئاً لحديقة العملاق . وكان الخريف يقول : «إنه بالغ الأنانية» وعلى ذلك فقد ظل الشتاء مخيماً هناك على الدوام . ومالبثت رياح الشمال والبرد والصقيع والثلج أن رقصت عبر الأشجار .

وذات صباح كان العملاق يرقد مستقيظاً فى فراشه حينما سمع موسيقى جميلة . ولاحت لأذنيه بالغة العذوبة إلى الحد الذى ظن معه أنها لابد أن تكون صادرة عن موسيقى الملك وهم يمرون . والواقع أنه لم يكن سوى عصفور صغير يصدح بالغناء خارج نافذته ، غير أنه كان قد مضى زمن بالغ الطول منذ سمع طائراً يصدح بالغناء فى حديقته إلى الحد الذى لاح له صوته معه أجمل موسيقى فى العالم . وعند ذلك توقف البَرد عن الرقص فوق رأسه وتوقفت ريح الشمال عن الزئير ، وسرى إليه عطر جميل من خلال النافذة المفتوحة . قال العملاق : «أعتقد أن الربيع قد أقبل فى نهاية المطاف» . وقفز خارجاً من فراشه إلى الخارج . فما الذى رآه ؟

رأى منظراً مدهشاً غاية الأدهاش . فمن خلال ثقب صغير فى الجدار ، كان الأطفال قد تسللوا وكانوا يجلسون بين أغصان الأشجار ، وفى كل شجرة يمكنه أن يراها كان ثمة طفل صغير . كانت الأشجار بالغة البهجة بأن تجد الأطفال مرة أخرى إلى الحد الذى غطت معه نفسها بالأزهار وكانت تلوح بأذرعها فى رفق من فوق رءوس الأطفال .

وكانت الطيور تطير حول المكان وتزقزق فى بهجة والأزهار تطل من خلال العشب الأخضر وتضحك لقد كان منظراً جميلاً غاية الأمر أن الشتاء كان مازال مخيماً فى أحد الأركان . لقد كان ذلك هو أبعد ركن من الحديقة ، وفيه كان يقف صبى صغير ، كان من الضآلة إلى الحد

الذى يمكنه معـه أن يصل إلى أغصان الشـجرة وان يتجول حـولها وهو يبكى فى مـرارة . وكانت الشـجـرة المسكينة مـاتزال مـغطاة بالصقـيع والجليـد، ورياح الشمال تهـب وتزمجر من فـوقهـا . قالت الشـجرة : «تسلق أيها الولد الصـغير وحنت أغصـانها إلى أدنى ما تستطيـعه ولكن الولد كان أضأل من أن يبلغها .

وذاب قلب العملاق إذ نظر حـوله ، وقال : «كم كنت أنانياً ! الآن أعرف لمـاذا لم يكن الربيع يأتى إلى هنا . سأضع ذلك الولـد المسكين على قمة الشجرة ثم أحطم الجدار ، وستكون حديقتى ملعباً للأطفال إلى الأبد» . لقد كان شديد الأسف حقيقة على ما فعله .

وهكذا زحف هابطاً وفـتح البـاب الأمـامى برقة بالـغة وخـرج إلى الحديقة بيد أنه عندما أبصره الأطفال ، اشتد بهم الخوف إلى الحد الذى تراكضوا مـعه بعيداً ، وعاد الشـتاء إلى الحديقة مـرة أخرى . أما الولد الصغير فـهو وحده الذى لم يرتعد لأن عينيه كانـتا زاخرتين بالدموع إلى الحد الذى لم ير معه العملاق آتياً .

فتسلل العملاق من ورائه وأخذه برفق فى يده ووضعه فوق الشجرة . وفى الحال تفتـحت الشجرة عن الأزهار . وأقبلت الطيـور تصدح بالغناء من فوقها ومد الولد الصغير ذراعيه وألقى بهما حول عنق العملاق وقبله. وعندئذ مـا أبصـر بقيـة الأطفـال أن العمـلاق لم يعـد شريراً ، عـادوا يتراكضون ومعهم جاء الربيع . قال العملاق «لقد أصبحت الحديقة لكم

الآن أيها الأطفال الصغار» وتناول بلطة كبيرة وكسر الحائط . وعندما كان الناس ذاهبين إلى السوق فى الساعة الثانية عشرة وجدوا العملاق يلعب مع الأطفال فى أجمل حديقة رأوها طوال حياتهم .

وطوال اليوم ظلوا يلعبون حتى إذا جاء المساء أقبلوا على العملاق مزجين إليه تحية الوداع .

فقال : «ولكن أين رفيقكم الصغير » . إنه الصبى الذى وضعته فوق الشجرة» لقد كان العملاق يحبه أكثر من غيره لأنه قبله فأجابه الأطفال : «لسنا نعلم . فقد مضى بعيداً» .

فقال العملاق : «لابد لكم من أن تقولوا له أن يكون على يقين من أمرهوأن يأتى غداً» ولكن الأطفال قالوا إنهم لم يكونوا يعرفون أين يعيش وإنهم لم يروه من قبل ، فشعر العملاق بأنه حزين غاية الحزن . وفى كل أصيل صيف كانت المدرسة تغلق أبوابها وكان الأطفال يأتون ويلعبون مع العملاق ولكن الولد الصغير الذى كان العملاق يحبه لم ير قط بعد ذل .

كان العملاق بالغ الرفق بجميع الأطفال ومع ذلك كان يتوق إلى صديقه الصغير الأول وكثيراً ما كان يتحدث عنه ، وكان من عادته أن يقول : «كم أود أن أراه !» .

مضت السنين وتقـدم العملاق فى السن وضعف . لم يعـد بمقدوره أن يلعب أكثـر من ذلك وهكذا جلس فى مقـعد كبـير ذى مسـاند وكان يرقب الأطفال وهم يمارسـون ألعابهم ويعجب بحديقتـه . كان يقول : «إن لدى كثيـراً من الأزهار الجميلة . بيد أن الأطفـال هم أجمل الزهور جميعاً .

وذات صباح فى الشتاء أطل من نافـذته إذ كان يرتدى ملابسه . لم يكن يكره الشـتاء الآن ، لأنه كـان يعلم كأنه لا يعـدو أن يكون الربيع نائماً، وأن الأزهار تستريح .

وعلى حين غرة حك عينيه فى دهشة ونظر ثم نظر : من المحقق أن ما رآه كان منـظراً مدهشاً . ففى أبعـد ركن من الحديقة كان ثمـة شجرة مكسوة تمـاماً بأزهار بيضـاء جميلة وكـانت أغصانها ذهـبية ، والفاكـهة الفضية تتدلى منها ، ومن تحتها وقف الولد الصغير الذى أحبه .

ركض العملاق هابطاً فى فـرحة كبرى ومتجهـاً إلى الحديقة وأسرع عبر العشب ثم أقترب من الطفل . وحين أقتـرب منه أحمر وجهه غضباً وقال :

«ترى من عساه يكون ذاك الذى جـرؤ على أن يجرحك ؟» ذلك أنه فوق راحتى يدى الطفل كـان ثمة آثار لمسمارين ، وكانت آثار مـسمارين على القدم الصغيرة .

فصاح العملاق : «ترى من عساه يكون ذاك الذى جرؤ على أن يجرحك ؟ خبرنى حتى استل سيفى الكبير وأذبحه» . فأجابه الطفل : «كلا . إنما هذه جراح الحب» .

فقال العملاق : «من عساك تكون ؟» وحل به رعب غريب فانحنى أمام الطفل الصغير .

وهنا ابتسم الطفل للعملاق وقال له : «لقد تركتنى ألعب ذات مرة فى حديقتك . واليوم ستأتى معى إلى حديقتى وهى الفردوس» .

وعندما ركض الأطفال فى ذلك الأصيل عثروا على العملاق يرقد ميتاً تحت الشجرة وقد غطته الأزهار البيضاء من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . .

٨ - النافذة المفتوحة

هـ . هـ . مونرو (ساكى)

«ستعـود عمتى فوراً ، يا مـستر نتل» . قالتـها شابة بالغة الـتمالك لنفسها فى الخامسـة عشرة ، «وفى عين الوقت ، ينبغى عليك أن تحاول وتتحملنى» .

وحال فرامتون نتل أن يقول الشئ الصحيح الذى يطيب ، فى الوقت المناسب ، من كبرياء ابنة الأخ ، لحظتهـا ، دون أن يخرج من حسبانه - بلا موجب - العمـة التى كانت مقبلة . وفى قرارة نفـسه كان يشك ، أكثـر منه فى أى وقت مـضى ، فيمـا إذا كانت هذه الـزيارات الرسمـية لمجموعـة متتالية من الأغراب تمـاماً ، خليقة بأن تقوم بالكثيـر لمساعدة العلاج العصبى ، الذى كان يفترض فيه أنه يمر به .

«أعلم كيف سيكون الأمر» قـالتها أخته ، عندما كان يستـعد للهجرة إلى هذا الملجأ الريفى ، «ستدفـن نفسك هناك ، ولا تتحدث إلى حى ، وستـسوء أعصـابك عمـا كانت عليه فى أى يوم من الأيـام . سأعطيك رسائل تقديم إلى كل من أعرفهم هناك . وقد كان بعضهم ، على قدر ما يمكننى أن أتذكر ، لطفاء تماماً» .

وتساءلت ابنة الأخ ، عندما حكمت بأنه قد حدث بينهم ما فيه الكفاية من الاتصال الصامت : «أتعرف كثيراً من الناس هنا ؟» فقال فرامتون : «لا أكاد أعرف أحداً . لقد كانت أختى مقيمة هنا ، فى الأبرشية ، كما تعلمين ، منذ حوالى أربع سنوات خلت ، وقد أعطتنى خطابات تقديم لبعض الناس هنا» .

قال هذه الجملة الأخيرة بنبرة أسف واضح . فاستأنفت الشابة الرابطة الجأش كلامها قائلة : «وعلى هذا فأنت ، من الناحية الفعلية ، لا تعرف شيئاً عن عمتى» .

فاعترف الزائر بقوله : «لست أعرف إلا أسمها وعنوانها» - وكان يتساءل عما إذا كانت مسز سايلتون متزوجة أو أرملة . كان ثمة شئ ، لا سبيل لتعريفه ، فى الغرفة ، يوحى بمسكن رجل .

قالت الطفلة : «لقد حدثت مأساتها الكبرى منذ ثلاث سنوات . أى منذ وقت أختك» .

فتساءل فرامتون : «مأساتها ؟» ذلك أن المآسى كانت تلوح فى غير موضعها فى هذه البقعة الريفية التى تعمها الراحة .

قالت ابنة الأخ وهى تشير إلى نافذة فرنسية واسعة كانت تتفتح على مرح : «قد تتساءل عن السبب فى أننا نترك تلك النافذة مفتوحة ، على مصراعيها ، فى أصيل أكتوبر» .

فقال فرامتون : «إن الجو دافئ فى هذا الوقت من السنة . ولكن١٣٩ هل لتلك النافذة أى صلة بالمأساة ؟» .

«خارج تلك النافـذة ، ومنذ ثلاث سنوات إلا يوماً ، خرج زوجـها وأخواها الشـابان لممارسـة صيدهم اليومـى . ولكنهم لم يعودوا قط . فعند عبورهم البطاح ، إلى أرض صيدهم وقنصهم الأثيرة ، حوصروا هم الثلاثة فى قطعـة خداعة من المسـتنقعات . حـدث هذا فى ذلك الصيف المبلول المخيف ، كمـا تعلم ، وما لبثت الأماكن التى كانت آمنة ، فى غيـر ذلك من السنوات ، أن أنهارت فجـأة ، ودون تحذير . لم تسـتعد أجسـادهم قط . وان ذلك هو الجزء المـروع من الموضوع» . وهنا فـقد صوت الطفلة نغمته المتمالكة نفسها ، وغدا إنسانياً مهتزاً .

«إن العمة المسكينة تظن دائماً أنهم سيعودون يوما ما ، هم والكلب البنى الصغير، الذى ضاع معهم، ويسيرون إلى تلك النافذة ، كما اعتادوا أن يفعلوا. وهذا هو السـبب فى أن النافذة تترك مـفتوحة ، كل مـساء ، إلى أن يخيم الغروب تماماً ، يا للعمة العـزيزة المسكينة . إنها كثيراً ما وصفت لى كيف خـرجوا ، زوجها بمعطفـه الأبيض ، ضد الماء ، على ذراعه ، ورونى أخـوها الصغيـر يغنى «برقى ، لماذا تقـفزين ؟» ، على نحو ما كان يقول دائماً ليغـيظها، لأنها كانت تقول إن هذا الأمر يضغط على أعصـابها. أتعرف أننى أحيـاناً، فى الأماسى الساكنة الهادئـة كهذه الأمسية، أكاد أشعر شعوراً مروعاً بأنهم سيدخلون جميعاً من تلك النافذة؟» .

وانفلتت منصرفة، برجفة صغيرة وكان مما بعث الراحة فى نفس فرامتون أن دخلت العمة إلى الحجرة بدوامة من الاعتذارات عن تأخرها فى الظهور .

وقالت : «أرجو أن تكون فيرا قد سلتك» .

فقال فرامتون : «لقد كانت شائقة جداً» .

فقالت مسز سابلتون بخفة: «آمل ألا تكون النافذة المفتوحة تضايقك. سيعود زوجى وأخواى مباشرة، من الصيد، وهم يأتون دائما على هذا النحو . لقد خرجوا للقنص فى المستنقعات اليوم ، ولهذا فسيعيثون فى أبسطتى فساداً . هذا طبعكم أيها الرجال ، أليس كذلك ؟» .

وتحدثت بابتهاج عن الصيد ، والبط المنتظر فى الشتاء . ولم يكن هذا كله ، فى نظر فرامتون ، إلا أمرًا مروعاً . وقام بمجهود مستميت ، وإن لم ينجح فيه إلا جزئياً ، ليحول دفة الحديث إلى موضوع أقل ترويعاً . كان يدرك أن مضيفته لم تكن تعطيه إلا جزءاً من انتباهها ، وأن عينيها كانتا تمران به ، على نحو مستمر ، متجهتين إلى النافذة المفتوحة ، والمرح الواقع خلفها ، وكان من سوء الحظ ، يقينا أن يتفق ميعاد زيارته مع هذه الذكرى السنوية المأسوية .

«إن الأطباء متفقون فى حثى على الراحة التامة ، وعدم التعرض للأنفعال الذهنى ، وتجنب أى شئ له طبيعة التدريب البدنى العنيف .

قالهـا فرامتـون ، الذى كان يناضل تحت ظل الوهم الواسع الانتـشار ، على نحو مـحتمل ، والذاهب إلى أن الأغراب تمـاماً ومعارف المـصادفة متعطـشون إلى أبسط التفصـيلات عن أوجاع المرء ، ونواحى ضـعفه ، وسببها وعـلاجها ، واستمر قائلاً : «أما فى مسـألة الأكل ، فأنهم ليسوا على مثل هذه الدرجة من الاتفاق» .

«لا ؟» قالتهـا مسز سابلتون بصوت لم يعـد أن حل محل تثاؤبة فى اللحظة الأخيرة . وفجأة ، عاد إليها الانتباه اليقظ - ولكن دون أن تكون منتبهة لما كان فرامتون يقوله .

وصـاحت : «هاهم أولاء ، قد وصلوا أخـيراً ! وصلوا فى مـيعـاد الشاى بالضبط. أولاً يلوحون كما لو كان الطين يغطيهم حتى العينين !»

ارتعش فرامتون ارتعاشاً يسيراً ، وتحول إلى إبنة الأخ بنظرة يراد بها أن تنقل الفـهم المتعـاطف . وكانت الطفلة تـحدق بناظريها مـن النافذة المفـتوحة، وثمة رعب دائخ فى عـينيها . وفى صدمـة باردة من الخوف الذى لا يسمى ، دار فـرامتون فى مقعـده ، ونظر فى نفس الاتجاه . فى الشفق الآخذ فى الاظلام ، كـانت ثلاثة أشباح تسير عبـر المرج ، نحو النافذة . وكانوا جميعاً يحملون بنادق تحت أذرعهم، بينما كان أحدهم - بالإضافة إلى ذلك - مـثقلاً بمعطف أبيض ، يتدلى على كـتفه ، ولبث كلب أسمر متعب قرب كعوبهم ودون ضجة اقتربوا من البيت وعند ذلك

تغنى صوت شاب خشن ، فى قلب الغروب ، «قلت لك يا بنى . لماذا تثبين ؟» .

فخطف فرامتون عصاه وقبعته . كان باب الصالة ، والممشى المغطى بالحصاء ، والبوابة الأمامية أشياء لمحها ، دون وضوح ، فى تراجعه المندفع ، واضطر راكب عجلة ، سائر فى الطريق ، إلى أن يدخل فى السور ، ليتجنب الاصطدام الوشيك .

«هانحن أولاء ، ياعزيزتى» . قالها حامل المعطف الماكينتوش الأبيض ، مقبلاً من عبر النافذة . «إن الطين يغطينا ، ولكن أغلبه جاف. من ذا الذى اندفع خارجاً حين أتينا ؟» . فقالت مسز سابلتون : إنه رجل بلغ الغاية فى غرابة الأطوار . لم يكن يتحدث إلا عن أمراضه ، وقد آندفع خارجاً ، دون كلمة وداع أو اعتذار ، حين وصلتم . لقد كان المرء خليقاً بأن يظن أنه رأى شبحاً .

فقالت ابنة الأخ بهدوء : «أظن أن السبب هو الكلب . فقد أخبرنى بأن الكلاب توقع الرعب فى نفسه . لقد طورد مرة فى مقبرة ، فى مكان ما على ضفاف نهر الكنج ، بواسطة مجموعة من الكلاب المنبوذين ، وكان عليه أن يقضى الليلة فى قبر محفور حديثاً ، بينما تلك المخلوقات تنبح وتزمجر وتتصاعد من أفواهها الرغوة من فوقه إن هذا كاف لأن يجعل أى إنسان يفقد أعصابه .

كانت متخصصة فى رواية القصص الخيالية من وحى اللحظة .

٩ - الحـــرب

لويجى بيراندللو

كان على المسافرين من روما بقطار الليل السريع أن يتوقفوا حتى الفجر فى محطة نابيانو الصغيرة ليستأنفوا رحلتهم فى قطار محلى يربط الخط الرئيسى «بسلمونا» .

وبدت إحدى عربات الدرجة الثانية مزدحمة ومليئة بالدخان بعد أن قضى فيها خمسة أشخاص ليلتهم ، وفى الفجر اندفعت إلى هذه العربة إمرأة ضخمة فى ثياب سوداء - كحزمة لا شكل لها - وخلفها زوجها يزفر ويئن ، رجل ضئيل الجسم نحيل معتل ، وجهه شاحب شحوب الموت ، وعيناه صغيرتان لامعتان ، وفى حركاته خجل وارتباك .

وبعد أن جلس فى مقعده شكر المسافرين فى أدب على مساعدتهم لزوجته ، وإفساحهم مكاناً لها ، ثم استدار إلى المرأة وحاول أن يصلح من ياقة معطفها وهو يسألها فى رقة .

- كيف أنت الآن يا عزيزتى ؟

وبدلاً من أن تجيب الزوجة جـذبت ياقة معطفها ثانيـة حتى حدرت عينيها لكى تخفى وجهها .

وتمتم الزوج فى ابتسامة حزينة «عالم قذر» .

وشعر أن من واجبه أن يشرح لمرافقـيه فى السفر أن زوجته تستحق الشفقة لأن الحرب ستأخذ منهـا ابنها الوحيد وهو صبى فى العشرين من عمره ، كرس له كل منهمـا حياته بأكملها ، حتى أنهما تركـا بيتهما فى سلمونا وتبعاه إلى روما حيث يذهب يطلب العلم ، ثم سمحا له بالتطوع فى الحـرب ظناً منهمـا أن السلطات لن ترسل به إلى الجـبهة قـبل ست شهور على الأقل . والآن تلقيا منه فجأة برقية ينبئهما فيها أنه سيرحل فى خلال أيام ، ويطلب منهما الحضور لتوديعه .

وجلست المـرأة تنتفض وتلتـوى وتهـمهم مـا بين الحين والحـين كالحيوان الجريح ، كانت على ثقة من أن هذا التـفسير من جانب زوجها لن يثـير عطفـاً فى نفـوس هؤلاء الناس الذين لابد وأنهم يمـرون بنفس المحنة التى تمر بها . وقال واحد منهم كان يصغى باهتمام واضح .

– اشكرى الله لأن ابنك سيرحل اليوم . إن ابنى سافر إلى الجبهة فى أول يوم من أيام الحرب وقد عاد مرتين مـجروحاً ثم أعيد من جديد إلى الجبهة .

وقال مسافر آخر .

- وماذا عنى أنا ؟! إن لى ولدين فى الجبهة ، وأبناء أخى الثلاثة .

وتجرأ الزوج وقال :

- قد يكون هذا صحيحاً ولكن فى حالتنا إنه ابننا الوحيد .

- وما الفرق ! إنك تستطيع أن تفسد ابنك الوحيد ، بإغراقه بالاهتمام. ولكنك لا تستطيع أن تحبه أكثر من أبنائك الآخرين ، إذا كان لك أبناء آخرون ، إن الحب الأبوى ليس رغيفا يقسم إلى قطع توزع بالتساوى بين الأبناء ، إن الأب يعطى كل حبه لكل واحد من أبنائه من غير تمييز ، سواء أكانوا واحداً أم عشرة ، وإن كنت لليوم أقاسى من أجل اثنين من أبنائى ، فلا يعنى هذا أنى أقاسى النصف من أجل واحد منهم بل أنا فى الواقع أقاسى الضعف.

وتنهد الزوج فى ارتباك .

- هذا صحيح . . ولكن افرض - لا أراك الله مكروهاً - أن لوالد ابنين فى الجبهة ، وفقد واحداً منهما ، ولكن بقى الثانى ليعزيه . . . بينما . . .

وأجاب المسافر فى غضب .

- نعم ابن يعزيه ، ابن يجب أن يعيش من أجله ، بينما يستطيع الأب الذى يموت ابن الوحيد أن يموت وراءه ويخلص من عذابه . أى

الموقفين أسوأ ؟ ألا ترى أن حالتى أسوأ من حالتك ؟

وقطع الحديث مسافر آخر ، رجل بدين أحمر الوجه ، بعينين رماديتين محمرتين قائلاً .

– كلام فارغ !

كان يلهث وفى عينيه البارزتين تبدو قوة كامنة لحيوية لا يمكن السيطرة عليها قوة يكاد جسمه الضعيف يقصر عن احتوائها .

– كلام فارغ !

كرر الرجل هذه الكلمات وهو يغطى فمه بيده ليخفى سنتين مفقودتين فى مقدمة فمه .

– كلام فارغ ! وهل نعطى أولادنا الحياة لمصلحتنا الخاصة !

وفى حزن تطلع إليه بقية المسافرين ، وتنهد الرجل الذى ذهب ابنه إلى الجبهة فى أول يوم من أيام الحرب وقال .

– أنت على حق ، أولادنا ليسوا ملكاً لنا ، أولادنا ملك للوطن . . .

فأجاب الرجل البدين فى سخرية .

– ها ! وهل نفكر فى الوطن عندما نهب أولادنا الحياة ! . أن أولادنا يولدون لأنهم . . . لأنهم يجب أن يولدوا . وعندما يخرجون إلى الحياة يأخذون معهم حياتنا نحن وهذه هى الحقيقة . نحن ملك

لهم وهم ليسوا ملكاً لنا . عندما يبلغ الواحد منهم العشرين من عمره يصبح مثل ما كنا عليه فى سنه ، كان لكل منا أب وكانت له أم، ولكن إلى جانب الأب والأم كانت هناك أشياء كثيرة تملأ حياتنا ، البنات والسجائر والأفكار الخيالية ربطات العنق الجديدة . . والوطن طبعاً . . الوطن الذى كنا سنجيب نداءه فى سن العشرين حتى لو اعترض الأب واعترضت الأم . والآن ، ونحن فى هذه السن الكبيرة، حبنا لوطننا كبير ، ولكن أكبر منه حبنا لأولادنا من منا لا يتمنى أن يأخذ مكان ابنه فى الجبهة لو استطاع ؟

وساد السكون وأحنى كل المجودين رأسه دلالة على الموافقة ، واستمر الرجل البدين فى كلامه ؟

- فلم لا نقدر عواطف أبنائنا وهم فى سن العشرين ؟ أليس من الطبيعى أن يكون حبهم للوطن فى هذه السن أعظم من حبهم لنا ؟ وأنا بالطبع أتكلم عن الأولاد المهذبين ، أليس من الطبيعى أن يكون الأمر كذلك ، وهم ينظرون إلينا نظرتهم إلى شيوخ ليس بوسعهم أن يتحركوا من مكانهم ، ولا يملكون إلا أن يلزموا بيوتهم وإذا كان الوطن موجوداً . . إذا كان ضرورة طبيعية ، كالعيش لابد لنا أن نأكل منه لكى لا نموت من الجوع ، فلابد إذاً من أن يذهب الناس للدفاع عنه ، وأولادنا يذهبون وهم فى العشرين إنهم إن ماتوا يموتون فى انفعال وسعادة - أنا أتكلم طبعاً عن الأولاد المهذبين .

ودعنا الآن نزن الأمـر ، إذا مات الإنسـان شاباً سـعيـداً ، دون أن يعانى النواحى القبيحة فى الحياة ، ملل الحياة وتفاهتها ؛ والمرارة الناتجة عن خيبة الأمل ، فما الذى تريده خيراً من ذلك ؟ يجب على كل منا أن يجفف دمـوعه . يجب على كل منا أن يضحك كمـا أفعل أنا ، أو على الأقل أن يشكر الله - كما أفعل أنا - لأن ابنى قبل أن يموت أرسل إلى يقول أنه راض سعيـد لأن حياته ستنتهى خير نهاية كـان يتمناها لنفسه . ولهذا لا ألبس ملابس الحداد كما ترون .

وهز معطفه الفـاتح وكأنه يريهم لونه . وكانت شفـته العليا ترتعش فوق أسنانه المفقودة ، وعلى عينيـه الجامدتين غشاء من دموع ، ثم أنهى كلامه بضحكات رفيعة أشبه بالعويل .

ووافق الجميع على كلامه .

وكانت المرأة التى تكومت فى ركن من الديوان ، مختفية فى طيات معطفـها تجلس وتنصت . كانت هذه المـرأة قد حاولت خلال الشـهور الثلاثة السابقة أن تجد فى كلام زوجها وأصدقائها شيئاً يسرى عنها حزنها العمـيق ، شيئاً يريهـا كيف تستطيع أم أن تسلم بإرسـال أبنها ، لا إلى الموت بل حتى إلى خطر محتمل ، لكنـها لم تجد بين الكلمات الكثيرة التى قيلت كلمة واحدة تعزيها ، وتضـاعف حزنها حين حسبت أن إنساناً ما لا يشاركها مشاعرها .

ولكن الآن . . . الآن نفذت كلمات المسافر إلى قلبها وأدهشتها وأدركت فجأة أن الآخرين لم يكونوا مخطئين ولم يعجزوا عن فهمها بل هى التى كانت مخطئة . هى التى لم تستطع أن تسمو إلى مستوى الآباء والأمهات الذين استطاعوا أن يسلموا دون أن يبكوا ، يسلموا لا برحيل أبنائهم فحسب بل بموتهم . ورفعت رأسها ، ومالت إلى الأمام ، تحاول أن تنصت باهتمام كبير إلى التفاصيل التى يرويها الرجل البدين عن ابنه، كيف مات ، وكيف سقط كبطل من أجل ملكه ووطنه ، سعيدا وبلا ندم. وخيل إليها أنها قد دخلت فجأة عالماً لا عهد لها به . واشتد سرورها حين بدأ المسافرون يهنئون الأب الشجاع الذى استطاع أن يتحدث عن موت ابنه برباطة جأش هكذا .

ثم فجأة وكأنها لم تسمع شيئاً مما قيل ، وكأنها تستيقظ من حلم ، فجأة التفتت إلى الرجل البدين وسألته .

ـ إذا . . . فقد مات ابنك حقاً ؟

وتطلع إليها الجميع واستدار الرجل البدين أيضاً ، ونظر إليها ، وثبت فى وجهها عينيه الكبيرتين المنبعجتين الرماديتين وقد كستهما طبقة رقيقة من الدموع . وحاول أن يجيب ، ولكن الكلمات خانته ونظر إليها واستمر ينظر إليها ، كما لو كان قد أدرك إذ ذاك فقط ، بعد هذا السؤال الأحمق الخال من الكياسة ، وأدرك فجأة وأخيراً أن ابنه قد مات حقا ، ذهب إلى الأبد - دون رجعة ، وتقلص وجهه وانقلبت ملامحه بشكل

مخيف ثم انـتزع منديلاً من جيبـه فى سرعة . وأثار دهشة الجـميع حين انخرط فى عـويل مؤلم يهز القلب - عويل جـارف لا يمكن للإنسان أن يسيطر عليه .

١٠ - بيت مسكون

فرجينيا وولف

أياً كان وقت استيقاظك فسوف تسمع صوت آغلاق باب ما ، كانا يسيران من غرفة إلى غرفة ، وقد تشابكت أيديهما ، فيرفعان هذا الشئ ويفتحان ذلك حتى يتأكدا - كانا زوجا من الأشباح .

قالت «تركناه هنا» . وأضاف هو «وهنا أيضاً» . وغمغمت «فى الطابق العلوى» وهمس «وفى الحديقة» . وقالا معاً «لابد من الهدوء وإلا أيقظناهم» .

ولكنكما لم توقظانا . كلا فالمرء عادة ما يقول «إنهما يبحثان عنه ولذلك يفتحان الستارة» ثم يمضى فى القراءة - صفحة أو صفحتين - وأحياناً ما يقول واثقاً «لقد وجداه الآن» ويوقف القلم الرصاص على الهامش . وأحياناً يتعب من القراءة فينهض ويذهب ليتأكد بنفسه . أن المنزل خاو تماماً والأبواب مفتوحة ولا تسمع إلا هدير الحمام والرضى يفيض منه ، وهدير النورج وهو يدور فى المزرعة القريبة «لماذا أتيت إلى

هنا ؟ كنت أريد أن أعثر على أى شئ ؟» كـانت يداى خاويتين . «ربما كان فى الطابق العلوى» كـان التفاح فى غرفـة السطح . وهكذا أهبط مرة أخرى . ما تزال الحديقة ساكنة كعهدها ، غير أن الكتاب قد تسرب بين نصال الكلأ .

ولكنهما قد عثرا عليه فى غرفة الجلوس . لا يستطيع أحد أن يراهما وبدت فى زجاج الـنافذة صورة التـفاح وصـورة الورود . وكانت الأوراق تبدو خضـراء فى الزجاج . فإذا تحركـا فى غرفة الجلوس استـدار التفاح فبدا جانبه الأصفـر . ومع ذلك فإنه بعد لحظة واحدة - إذا فتح الباب - يبدو مبعثراً على الأرضية ومعلقاً على الجدران ومدلى من السقف - ماذا ؟ كانـت يداى خاويتـين . ومر ظل بلبل على البـساط - ومن أعـمق آبار الصمت استمدت الحمامة البرية هديل صوتها «أمان أمان أمان» كان نبض المنزل يدق فى رفق . «الكنز الدفـين ، الغرفـة . . .» وتوقف النبض . أكان هذا هو الكنز الدفين ؟

وبعد لحظة خبا الضوء . هنـاك فى الحديقة إذن ؟ ولكن الشجرات قد نسـجت ثوباً من الظلام حول شعـاع حائر من أشعة الشـمس . كان الشعاع الذى أردته يتوهج دائماً خلف الزجاج وهجـاً رهيفاً رفيقاً بارداً وقد غاص تحت السطح . وكان الموت هو الزجاج ، وقد حال بيننا الموت إذ جاء أولاً إلى المرأة منذ مئات الـسنين فتركت المنزل وأغلقت كل النوافذ ، وأظلمت كل الحجرات . وترك هو المنزل وتركها واتجه شمالاً واتجه

شرقاً ورأى النجوم مقلوبة فى سماء الجنوب . ثم عاد يطلب المنزل فوجده مهجورا تحت المرتفعات. «أمان أمان أمان» كان نبض المنزل يدق فى سرور . «الكنز لك» وتزأر الريح فوق الطريق . وتميل رءوس الأشجار هائمة فى المطر . ولكن شعاع المصباح يسقط مباشرة من النافذة. وتتوهج الشمعة وهى ثابتة ساكنة . أن الشبحين يجولان فى المنزل ويفتحان النوافذ ويتهامسان حتى لا نستيقظ وهما ينشدان السعادة .

تقول «كنت أنام هنا» ويضيف هو : «قبلات بلا حصر» . «نصحو فى الصباح والفضة بين الأشجار» «فى الطابق العلوى» . «وفى الحديقة» - «وعندما يأتى الصيف» و «موسم الثلوج فى الشتاء» - ويترامى صوت أغلاق الأبواب على البعد ، خافقة برفق كأنها نبضات القلب .

ويقتربان ثم يتوقفان فى مدخل الباب . وتسكن الريح وينزلق المطر كاللجين على الزجاج . وتعشى أعيننا ، ولا نسمع الخطوات إلى جوارنا، ولا نرى المرأة وهى تنشر عباءة الأشباح التى ترتديها . وتحيط يداه هو بالفانوس لتحمى اللهب من الهواء . ونخرج أنفاسه قائلة «انظرى . أنهم نائمون . والحب على شفاههم» ينحنيان وقد رفعا مصباحهما الفضى فوق رءوسنا وجعلا ينظران إلينا نظرة طويلة وعميقة . ويتوقفان طويلاً بينما تهب الريح مباشرة على المصباح فيميل اللهب قليلاً . وتمر أشعة القمر الطليقة على الأرضية والجدران ثم تلتقى فتصبغ الوجهين

المائلين - الوجـهين المتـفكرين - الوجهين اللذين يتـفحصـان النائمين بحثاً عن السعادة الخبيئة .

«أمـان أمان» - ويدق قلـب المنزل فى فخـر . ويتـأوه هو «سنوات طويلة» ولقد وجدتنى مرة أخرى . وتغمغم هى «هنا نائمة ، أو وأنا أقرأ فى الحديقـة أو أضحك أو أدحرج التـفاح فى غرفـة السطح . هنا تركنا كنزنا» ثم ينحنيان ثم يشع نورهمـا فيرفع الأجفان من فوق عـيونى «أمان أمان أمـان !» ويدق نبض المنزل دقا عنـيفا . وأسـتيقـظ وأنا أصيح - «أهذا أذن كنزكما الدفين ؟ النور فى القلب» .

١١ - عصفور كناريا لواحد

ارنست همنجواى

مر القطار بسرعة فائقة ببيت من الطوب الأحمر به حديقة ونخيل وموائد فى الظل من الجهة الأخرى البحر ، ثم غير القطار اتجاهه مارا بكميات متراكمة من الطوب الأحمر والطين ، ولم يعد البحر يبدو إلا فى فترات منقطعة بعيداً تحيط به الصخور . وقالت السيدة الأمريكية التي شاركتنى وزوجتى فى ديوان من القطار !

– لقد اشتريت هذا العصفور فى باليرمو ، كنت على ظهر السفينة وسمح لنا بقضاء ساعة واحدة فى الميناء وطلب البائع الثمن بالدولار فدفعت له دولاراً ونصف ، إن غناءه جميل للغاية .

وكان الجو شديد الحرارة فى ديوان عربة النوم الذى جلسنا فيه ولم تتسرب نسمة واحدة من النافذة المفتوحة . وأسدلت السيدة الأمريكية ستار النافذة ولم يعد البحر يعدو ولا فى فترات متقطعة من الجهة الأخرى زجاج ، وبعد الزجاج ممر وبعد الممر نافذة وخارج النافذة أشجار معفرة وطريق قذر وكروم مستوية وتلال حجرية فى لون الرماد .

وكان الدخـان يتصاعـد من مداخن طويلة كـثيرة حـين دخل القطار مـارسيليـا وأبطأ ثم اتخذ طريقـاً من بين الطرق الكثـيرة فى المـحطة . وتوقف القطار نصف ساعة فى مـارسيليا واشترت السيدة الأمـريكية نسخة من (الديلى ميلى) Daily Mail وتمشت على الرصيف ولكنها لم تذهب بعيداً، ففى مدينة كان حيث توقف القطار اثنى عشر دقيقة قام القطار دون إشارة رحـيل ولحقـته بالكاد . وكانـت السيدة الأمـريكية صـماء بعض الشئ، وكانـت متوجـسة . . ربمـا كانت إشارات الـرحيل تدق دون أن تسمعها .

وترك القطار مارسـيليا ولم تبد سـاحات التحويل وادخنة المـصانع فحسب بل إذا التـفت إلى الخلف وجدت مدينة مارسيليـا والميناء وخلفه تلال صخـرية وعلى المياة الأشعـة الأخيرة للشـمس النارية . وحين بدأ الظلام يخيم على الكون مر القطار بمنزل يحترق وقد أوقفت السيارات فى وسط الطريق وأخرجت الأسـرة وغيرها من المتاع من الـبيت ونثرت فى الحقل مـن حوله ، ووقف جمع من الـناس يرقب البيت وهو يحـترق . وبعد أن ساد الظلام دخل القطار أفينون واستقل بعض الناس القطار ونزل منه بعض الناس ، ومن أكشاك الجرائد اشتـرى الفرنسيون العائدون إلى باريس جرائد اليـوم الفرنسـية ، وعلى رصيف المـحطة وقف جنود زنوج يرتدون ثياباً بنيـة طوال القامة تلمع وجوههم بالقرب مـن نور المصابيح الكهربائيـة وكانت وجوههم شـديدة السواد وكانوا مـن الطول بحيث لم

يستطيعوا التحديق فى المارة . وترك القطار أفينون والزنوج على المحطة ومعهم شاويش أبيض قميئ وفى داخل ديوان النوم كان الكمسارى قد أنزل الأسرة الثلاثة من مكانها فى الحائط وأعدها للنوم ، وفى الليل استقلت السيدة الأمريكية على السرير دون أن تنام لأن القطار كان قطاراً سريعا وكانت تخشى السرعة أثناء الليل . وفى الممر المؤدى إلى الحمام ، بعيداً عن تيار الهواء ، وضعت السيدة عصفور الكناريا وغطت قفصه بقطعة من القماش . وخارج الديوان نور أزرق والقطار يجرى بسرعة فائقة طول الليل والسيدة الأمريكية مستقلية دون أن تنام تنتظر حادثه . . . تنتظر حطاماً .

وفى الصباح كان القطار قد اقترب من باريس وبعد أن خرجت السيدة الأمريكية من الحمام ورفعت عن قفص الكناريا الغطاء ذهبت إلى المطعم لتتناول أفطارها وعندما عادت إلى ديوان النوم كانت الأسرة قد عادت إلى مكانها فى الحائط وتحولت إلى مقاعد ،وكان عصفور الكناريا يهز ريشه فى ضوء الشمس التى دخلت من النافذة المفتوحة ،وكان القطار قد أصبح أقرب إلى باريس .

وقالت السيدة الأمريكية .

أنه يحب الشمس ، وبعد قليل سيغنى .

وهز العصفور ريشه ثم نقره بمنقاره وتابعت السيدة الأمريكية كلامها :

– لقد أحببت الطيور دائماً وسآخذه معى إلى البيت ، إلى ابنتى الصغيرة ، فقد اشتريته خصيصاً من أجلها .

وغرد العصفور ووقف ريش عنقه وعاد ينقر ريشه بمنقاره وعبر القطار نهراً ومر بغابة تناولتها يد الإنسان بالتهذيب والتشذيب . ثم مر بكثير من المدن الصغيرة خارج باريس وفى هذه المدن عربات للترام وإعلانات كبيرة عن سلع تجارية على الحائط فى مواجهة القطار . وبدأ كل ما مر به القطار فى وجوم كما لو كان يترقب حطاماً . ولمدة دقائق لم أصغ للسيدة الأمريكية وهى تتبادل الحديث مع زوجتى ، ثم لفت الحديث انتباهى حين سألت زوجتى :

– وهل زوجك أمريكى أيضاً ؟

وقالت زوجتى :

– نعم كلانا أمريكى .

– لقد حسبتكما انجليزيين .

وقالت زوجتى :

– أوه لا .

وقالت أنا :

– لعل ذلك لأنى ألبس حمالات للبنطلون ، (واستخدمت الكلمة الانجليزية بدلاً من الكلمة الأمريكية فى كلمة حمالات) لأحتفظ

بالشخصية الإنجليزية التى أضفتـها على ولم تسمع السيدة الأمريكية . كانت صماء فى الوقع ، تقرأ الشـفاة ، ولم أكن قد نظرت إليها ، كنت أنظر خارج النافذة ، واستمرت هى تتكلم مع زوجتى .

– أنا سـعيـدة لأنكما أمـريكيـين؛ إن الرجال الأمـريكيـين هم خيـر الأزواج.

وسكنت السيدة الأمريكية قليلاً ثم تابعت كلامها .

– أتعرفين أن هذا كان السبب فى رحيلى من أوروبا ، لقد أحبت ابنتى رجلاً من فـيفى ، أحبـته فى جنون . . . وبالطبع رحلت بها بعـيدا عنه .

وسألت زوجتى :

– وهل استطاعت ابنتك أن تتغلب على عاطفتها ؟

وقالت السيدة الأمريكية :

– لا . لا أظن ، فهى لا تريد أن تأكل ولا تريد أن تنام وقـد حاولت بكل وسيلة تسليتها فلم تسل . إنها لا تهتم بشئ . ومع ذلك كيف أرضى بزواجهـا من أجنبى ! لقد قـال لى مرة صديـق قديم أنه من المستحيل أن يسعد زوج أجنبى فتاة أمريكية .

وقالت زوجتى :

* لا ، لا أظن أن ذلك ممكن .

وأبدت السيدة الأمريكية إعجابها بمعطف زوجتى الذى اشترته من محل أزياء فى شارع Saint Honore بباريس واتضح أن السيدة الأمريكية تتعامل مع نفس المحل منذ عشرين عاماً . والمحل يحتفظ بمقاييس جسمها، وتتولى بائعة تعرفها وتعرف ذوقها إرسال الثياب إليها من أمريكا . وتصل الثياب إلى مكتب البريد القريب من منزلها بنيويورك ، ولا تدفع السيدة رسوم جمارك باهظة . إذ أنهم حين يعاينون الثياب فى مكتب البريد يجدونها بسيطة المظهر للغاية لا تميزها الزينة التى تجعل الثياب تبدو غالية . وقبل البائعة الحالية - تبريز - كانت هناك بائعة تسمى إميلى ، وفى خلال العشرين عاماً لم يكن هناك سوى ، هاتين البائعتين . أما محل الأزياء فهو لم يتغير ، بينما تغيرت الأسعار ، ارتفعت ولكن تبادل العملة يعادل هذا الارتفاع . والآن أخذ مقاييس ابنتها أيضاً فهى قد استكملت نموها ، وليس هناك خوف أن تتغير هذه المقاييس .

وبدأ القطار يدخل باريس وكانت الأرض ممهدة ولكن العشب لم ينم . وعلى الخطوط الحديدية وقفت عربات كثيرة ، عربات بنية غامقة للأكل وعربات بنية غامقة للنوم تقوم إلى روما فى الساعة الخامسة من مساء تلك الليلة إذا كان القطار مازال يقوم فى الخامسة وعلى العربات كتب باريس - روما . وعربات بمقاعد على السطح تروح وتجئ بين

الضواحى وباريس فى ساعات محددة والناس يملئون المقاعد والأسطح كما لو كان الحال مازال كما كان عليه ومرت حوائط بيضاء ونوافذ كثيرة وكل شئ واجم ينتظر حطاماً . وقالت السيدة الأمريكية لزوجتى وأنا أنزل الحقائب .

- إن الأمريكيين هم خير الأزواج . خير للمرأة ألا تتزوج على الأطلاق إن لم تتزوج بأمريكى .

وسألتها زوجتى .

- منذ متى تركت مدينة فيفى .

- فى الخريف القادم تنقضى على تركى لها سنتان . أن لها هذا العصفور . أنه لا بنتى ، لقد اشتريته من أجلها .

وقالت زوجتى .

- والرجل الذى أحبته ابنتك . هل هو سويسرى ؟

- وأجابت السيدة الأمريكية .

- نعم كان من عائلة كبيرة فى فيفى يدرس لكى يكون مهندسا . وقد تقابلا فى فيفى واعتادا أن يمضيا وقتاً طويلاً وهما يتمشيان معا .

وقالت زوجتى :

- أنا أعرف فيفى . لقد أمضينا فيها شهر العسل .

- هل كنت هناك حقاً . لابد أنكما قضيتما وقتاً ممتعاً . . . بالطبع لم يدر بخلدى أنها ستقع فى غرامه .

وقالت زوجتى :

- كانت فيفى بلدة جميلة .

وقالت السيدة الأمريكية :

- نعم أليست جميلة حقاً . وأين أقمتما هناك ؟

- فى فندق التيجان الثلاثة .

وقالت السيدة الأمريكية :

- إنه فندق ممتاز .

وقالت زوجتى :

- فعلاً . كانت لنا غرفة بديعة . وفى الخريف كان الريف جميلاً .

- هل كنتما هناك فى الخريف ؟

وأجابت زوجتى :

- نعم كنا هناك فى الخريف .

ومرونا بعربات ثلاثة استحالت حطاماً وقد تناثرت منها الشظايا وتقوست سقوفها وقلت :

- أنظروا . . . انظروا هذا الحطام .

ونظرت السيدة الأمريكية ولم تر سوى العربة الأخيرة . وقالت :

- لقد كنت أخشى وقوع ذلك طول الليل كثيراً ما تنتابنى هواجس ما تلبث أن تتحقق ، لن أسافر بعد اليوم فى قطار سريع ليلاً لابد أن هناك قطارات مريحة لا تمشى بمثل هذه السرعة .

وان القطار قد دلف إلى ظلام محطة حاردى ليون ثم توقف واتجه الحمالون إلى النوافذ واسلمت الحقائب إلى حمال من النافذة ونزلنا إلى عتبه المحطة الممتدة الطويلة ، واسلمت السيدة نفسها لموظف فى شركة كوك للسياحة قال لها (دقيقة واحدة ياسيدتى سأبحث عن أسمك) .

وأحضر الحمال عربة وكوم عليها الحقائب وودعت زوجتى السيدة الأمريكية وودعتها بدورى ، السيدة الأمريكية التى وجد موظف كوك باسمها فى صفحة مكتوبة بالآلة الكاتبة فى حزمة من الأوراق المكتوبة بالآلة الكاتبة أعادها إلى جيبه بعد أن فرغ منها .

وتبعنا الحال ومعه العربة على طول الطريق الصخرى المجاور للقطار، وفى النهاية كان هناك بوابه ورجل أخذ التذاكر .

وكنا قررنا الانفصال ، أنا وزوجتى ، كنا عائدين إلى باريس ليجد كل منا مسكناً مستقلاً . . .

١٢ - الرجل العجوز عند الجسر

ارنست همنجواى

على جانب الطريق جلس رجل عجوز فى ملابس متربة للغاية وعلى عينيه نظارة بحافة معدنية . وكان هناك جسر متنقل عبر النهر والعربات وسيارات النقل والرجال والنساء يعبرون الجسر. والعربات التى تجرها البغال تترنح على الشاطئ المنحدر الذى يؤدى إلى الجسر والجنود يساعدونها على التقدم بدفع العجلات ، وسيارات النقل تطحن الطريق لا تلوى على شئ تريد أن تخرج من المكان والفلاحون يغوصون فى التراب. ولكن الرجل العجوز جلس هناك دون أن يتحرك . كان تعباً ، لا يستطيع أن يذهب أبعد مما ذهب .

وكان على أن أعبر الجسر ، وأطمئن على سلامته من الناحية الأخرى وأتبين إلى أى مدى تقدم العدد ، وفرغت من مهمتى وعدت عبر الجسر ، كان عدد العربات أقل الآن مما كان عليه من قبل ، وعدد المشاة قليلاً للغاية ، ولكن الرجل العجوز كان مازال فى مكانه .

وسألته :

– من أين أتيت ؟

وكنت أتطلع إلى الجسر وإلى ريف دلتا «الأبرو» الذى يشبه ريف أفريقيا ، وأتساءل كم من الوقت سيمضى قبل أن نتمكن من رؤية العدو وأنا أتصنت طيلة الوقت للأصوات الأولى التى تشير ، لذلك الحدث الغامض الذى يسمونه الاتصال ، والرجل العجوز مازال فى مكانه .

وسألته :

- وماهى هذه الحيوانات ؟

وقال هو :

- كانت كلها ثلاثة حيوانات، معزتان وقطة ثم أربع أزواج من الحمام.

وسألته :

- وكان عليك أن تتركهم ؟

- نعم . بسبب المدفعية ، لقد أمرنى الضابط بالرحيل بسبب المدفعية.

وقلت وأنا أرقب الجانب البعيد من الجسر حيث أسرعت العربات الأخيرة وهى تنزل إلى الشاطئ المنخفض .

- أو ليس لك عائلة ؟

- لا . ليس لى إلا الحيوانات التى ذكرتها ، وبالطبع تستطيع القطة أن تعنى بنفسها وأن تبحث عن طعامها ، ولكنى لا أستطيع التفكير فيما سيحدث للحيوانات الأخرى .

وسألته :

– وماهى مبادؤك السياسية ؟

وقال :

– ليس لى مبادئ سياسية ، إننى فى السادسة والسبعين من عمرى ، وقد مشيت اثنى عشر كيلو متراً ولا أظننى أستطيع أن أذهب إلى أبعد مما ذهبت .

فقلت :

– ليس هذا المكان ملائماً للتوقف - هناك فى آخر الطريق عربات تنقل الناس إلى تورتوزا .

وقال :

– سأنتظر قليلاً ، ثم أذهب إلى أين تذهب هذه العربات ؟

وقلت :

– فى اتجاه «برشلونة» .

وقال :

– أنا لا أعرف أحداً فى هذا الاتجاه ، ولكنى شاكر جداً أشكرك كثيراً .

ونظر إلى دون أن يبدو على وجهه أى تعبير وإن بدا عليه الإرهاق ، وقال وكأنه لابد له وأن يتقاسم قلقه مع إنسان ما .

– القطة تستطيع أن تعنى بنفسها ، أنا متأكدة من ذلك ، ولا داعى للقلق من أجل القطة ، ولكن الحيوانات الأخرى ما رأيك ؟ ما عساه يحدث للحيوانات الأخرى ؟

– ربما لن يصيبهم شئ .

– أتظن ذلك ؟

وقلت وأنا أنظر إلى الطرف الآخر من الجسر حيث لم تعد تبدو أى عربات .

– ولم لا ؟

– لقد طلب إلى أن أرحل بسبب المدفعية فما عساها هى أن تفعل تحت نيران المدفعية ؟

وسألته :

– هل تركت قفص الحمام مفتوحاً ؟

– نعم .

– إذا سيطير الحمام !

وقال :

- نعم من المؤكد أنه سيطير ، ولكن بقية الحيوانات ، من الأفضل ألا أفكر فى بقية الحيوانات .

وحاولت أن أحثه على الرحيل :

- لو كنت منك لرحلت ؛ قم الآن وحاول أن تمشى .

- أشكرك .

وقام على قدميه وترنح من جانب إلى جانب ثم جلس من جديد فى التراب وقال فى خمول :

- كنت أعتنى بالحيوانات ، لم أرتكب ذنباً ، كنت فقط أعتنى بالحيوانات .

ولكنه كان يحدث نفسه ولم يكن يوجه الكلام لى .

ولم يكن بوسعى أن أفعل من أجله شيئاً . كان اليوم هو أحد عيد الفصح ، والقوات الفاشستية تتقدم نحو نهر «الأبرو» وكان اليوم يوماً معتماً بسحاب منخفض يحجب السماء ولذلك لم تظهر طائرات العدو فى الجو بعد . . . هذه الحقيقة ، وأن القطط يمكنها أن تعنى بنفسها كانت كل ما يمكن أن يواتى ذلك الرجل العجوز من حظ .

١٣ - سعـــادة

كاترين مانسفيلد

بالرغم من أن «بيـرتايونج» كانت فى الثلاثين مـن عمرها فـمازالت تعاودها لحـظات مثل هذه اللحظة ، لحظات تود فـيها لـو استطاعت أن تجرى بدلاً من أن تمـشى وأن تقفز من على الرصـيف وإليه فى خطوات راقصة وأن ترمى بشئ فى الهـواء وتلتقطه ، وأن تقف وتضحك . . على ماذا ؟ على لا شئ ، لا شئ على الإطلاق .

وماذا عساك أن تفعل إذا كنت فى الثلاثين من عـمرك وشعرت فجأة وأنت تقف تجاه بيتك بشعور من السعادة يتملكك ، سعادة غامرة ، كما لو كنت قد اختـزنت فى جسدك قطعة مشرقـة من شمس ذلك الأصيل ، قطعة تتأجج فى صدرك وترسل بومضاتها إلى كل ذرة من جسمك ؟

آه أليس هناك من وسيلة للتعبير عن مثل هذا الشعور دون أن يتهمك الناس بأنك مخمور أو مجنون ؟ يا لهذه المـدينة الحمقاء ! ولماذا يعطينا الله جسداً إذا كان لابد لنا أن نحتفظ به مقيداً ؟

وقالت «بيرتا» «لمارى» عندما فتحت لها الباب :

- هل عادت المربية :
- نعم ياسيدتى .
- وهل أتت الفاكهة ؟
- نعم ياسيدتى ، كل شئ معد .
- إحضرى الفاكهة إلى غرفة المائدة . سأرتبها قبل أن أصعد إلى الدور الثانى .

وكانت حجرة المائدة معتمة وباردة . ولكن «بارتا» خلعت معطفها رغم ذلك ، ضاقت بضغطه على جسمها . ومس الهواء الباردة ذراعيها .

ولكن فى صدرها مازالت تتأجج تلك الجمرة الملتهبة وترسل بومضاتها ، إنها لا تكاد تتحملها ، وتخشى أن تتنفس حتى لا تزداد اشتعالاً ومع ذلك تنفست تنفساً عميقاً ، وتخشى أن تنظر فى المرآة الباردة ومع ذلك نظرت ، وعكست المرآة إمرأة متألقة بشفتين مبتسمتين ، شفتين مرتجفتين وعينين سوداوتين كبيرتين . إمرأة تنصت إلى شئ ما وتنتظر شيئاً رائعاً . . تعرف أنه سيحدث . . حتما .

وأحضرت «مارى» الفاكهة على صينية ومعها إناء بلورى وصحن أزرق اختلطت زرقته بالبياض وكأنه قد غمس فى اللبن .

- هل أضئ النور يا سيدتى ؟

- لا ، أشكرك ، إنى أستطيع أن أرى بوضوح .

وكان من بين الفاكهة يوسفى وتفاح تشرب لونه بلون الفراولة الوردى وكمثرى ذهبية ناعمة كالحرير ، وعنب أبيض يتألق كالفضة ، وعنقود من العنب الوردى اشترته خصيصاً ليتمشى مع لون السجاد فى حجرة المائدة ، وقد يبدو هذا مضحكاً ولكنها فى الواقع اشترته لهذا الهدف .

وعندما فرغت من ترتيب الفاكهة فى هرمين كبيرين ، تراجعت بعيداً عن المائدة لترى المنظر العام ، وان المنظر غريباً للغاية . بدت المائدة الداكنة اللون وكأنها قد ذابت فى العتمة ، وبدا الإناء البلورى والصحن الأزرق ، وكأنما يسبحان فى الهواء ، وكان من الطبيعى أن يبدو لها كل ذلك ، فى حالتها النفسية الراهنة ، رائعاً روعة لا يكاد يصدقها الخيال . وابتدأت تضحك ، وقالت وهى تمسك بحقيبتها ومعطفها (لا . لا ، لاشك أنى سأصاب بالهستريا) . وجرت إلى الدور الثانى إلى حجرة ابنتها الصغيرة .

جلست المربية على كرسى واطئ وهى تطعم الطفلة عقب أن أخذت حمامها ، وكانت الطفلة ترتدى فستاناً أبيض «وچاكت» من الصوف الأزرق ، وعندما تطلعت إلى الباب ورأت أمها بدأت تقفز .

وقالت المربية :

والآن ياطفلتى العزيزة ، اهدئى قليلاً وتناولى طعامك .

قالت المربية ذلك وضمت شفتيها بطريقة فهمت منها برتا أنها دخلت حجرة أبنتها فى وقت غير مناسب .

وقالت برتا :

- أرجو أن لا تكون الطفلة قد أتعبتك فى نزهة العصر .

وهمست المربية :

- لقد كانت لطيفة للغاية ، ذهبنا إلى الحديقة وجلست فى كرسى وأخرجتها من العربة وجاء كلب كبير ووضع رأسه على حجرى وبدأت هى تلعب فى أذنه وتلويها . أوه كم كانت بودى أن تشاهديها إذ ذاك :

وأرادت برتا أن تسأل المربية ألم يكن من الخطورة السماح لطفلة بمعاكسة كلب غريب ، ولكنها لم تجرؤ على توجيه هذا السؤال ووقفت ترقب المربية والطفلة معاً . وقفت ترقبهما ويداها إلى جانبها طفلة فقيرة ترقب طفلة غنية وهى تلعب بعروس .

وتطلعت إليها الطفلة مرة ثانية وحدقت فيها النظر وابتسمت بطريقة ساحرة جعلت برتا تصيح :

- أرجوك يا نانى . دعينى أكمل إطعامها ، بينما تفرغين أنت من تنظيف الحمام .

وقالت المربية وهى ما تزال تهمس :

- أنت تدركين يا سيدتى أن الشخص الذى يطعم الطفلة لا ينبغى أن يتغير، وأن التغير قد يحدث لها شعوراً بعدم الاستقرار وربما يثيرها .

أليس هذا مضحكاً ؟ وما فائدة إنجاب طفلة إذا كان ولا بد أن تبقى الطفلة دائماً فى ذراعى امرأة أخرى ؟

وقالت برتا :

- أرجوك لابد لى من إطعامها .

وفى غضب تخلت المربية عن الطفلة وهى تقول

- والآن لا تثيريها بعد العشاء ، فأنت تفعلين ذلك دائماً وأعانى أنا بعد ذلك وقتاً طويلاً .

الحمد لله . لقد خرجت المربية إلى الحمام .

وقالت برتا والطفلة تستند إليها .

- والآن يا حبيبتى الغالية أنت لى .

وبدأت الطفلة تأكل ، وعندما فرغ الحساء استدارت برتا إلى المدفأة

وقالت وهى تقبل الطفلة :

– أنت لطيفة جداً وأنا أحبك .

وفى الواقع كانت برتا تحب الطفلة حباً شديداً . تحب عنقها وهى منحنية إلى الأمام وكعبى قدميها اللذيذين ولمعتها الشفافة فى ضوء المدفأة، تحبها إلى حد أعاد إليها شعورها بالسعادة ، ومرة أخرى عجزت عن التعبير عن ذلك الشعور ولم تعرف ماذا تفعل به .

وقالت المربية وقد عادت بإنتصار وأمسكت بطفلتها :

– مكالمة تليفونية لك يا سيدتى .

وجرت برتا إلى التليفون . . كان هارى . .

– أهذا أنت يابرتا ؟ سأتأخر ، سآخذ تاكسى وأحضر سريعاً ولكن أخرى العشاء عشرة دقائق . اتفقنا

– اتفقنا . . . أوه هارى .

ماذا تريد أن تقول ؟ لم يكن لديها ما تقوله ولكنها أرادت أن تطيل الاتصال به دقيقة أخرى ، لم تكن تستطيع أن تصيح كالحمقاء ، ألم يكن يوماً رائعاً ؟ وقال هارى .

– ماذا تريدين ؟

وقالت «برتا» :

– لاشئ . . ووضعت سماعة التليفون وهى تلعن قيود المدنية التى تحول بينها وبين التعبير عن مشاعرها .

كانت برتا فى انتظار ضيوف على العشاء ، **نورمان نايت وزوجته** وهو مهتم بالمسرح وهى بالديكور الداخلى ، **وايدى وارنر وكان قد طبع** أخيراً كتاباً من الشعر ، وامرأة اكتشفتها بيرتا **اسمها بيرل فولتون ولم** تكن بيرتا تعرف مهنة بيرل ، كانت قد قابلتها **فى النادى وشعرت** بميل إليها ، نفس الميل الذى تشعر به نحو كل سيدة **جميلة يحيط** جمالها جو من الغموض والشئ المثير حقاً هو أن برتا لم تستطيع أن تفهم بيرل رغم أنهما تقابلتا عدة مرات وتبادلتا الحديث، وكانت مسز فولتون صريحة إلى حد ما صراحة نادرة رائعة ولكن هذا الحد كان قائما لا تتجاوزه مطلقاً .

ولكن هل هناك شئ ما بعد هذا الحد ؟ قال هارى يوما «لا» ووصف مس فولتون بأنها مملة «وباردة ككل النساء الشقراوات وربما تكون مصابة بفقر فى العقل» ولكن برتا لم توافقه إذ ذاك .

لا يا هارى ، إن الطريقة التى تجلس بها وقد مالت برأسها قليلاً تنبئ أنها تخفى شيئاً ولابد أن اكتشف أنا هذا الشئ» .

وأجاب هارى ساعتها :

ومن المحتمل أنها تخفى معدة منتفخة .

وكان قد اعتاد على معاكسة بيرتا بمثل هذه الإجابات وكانت برتا تحب منه ذلك وتعجب به من أجل ذلك لسبب لا تعرفه . واتجهت برتا إلى حجرة المائدة واشعلت النار فى المدفأة ، وبدأت تلتقط الوسائد التى رتبتها مارى بعناية وتلقى بها على الكراسى كيفما اتفق وأحدث ذلك تغييراً كبيراً ، فدبت الحياة إلى الغرفة وبينما هى تلقى بالوسادة الأخيرة دهشت إذ وجدت نفسها تحتضنها فى حرارة ، ولكنها لم تطفأ النار فى صدرها ، أبداً بالعكس .

وكانت نافذة حجرة المائدة تؤدى إلى شرفة تطل على الحديقة ، فى نهاية الحديقة إلى جانب الحائط انبثقت شجرة طويلة ، شجرة كمثرى رفيعة فى أوج أزدهارها ، وقفت ساكنة وكأنما زرقة السماء المشوبة بالاخضرار قد أضفت عليها السكون ، وشعرت برتا حتى على هذا البعد أن ليس فى الشجرة برعماً واحداً لم يتفتح ولا ورقة واحدة ذابلة . وفى أحواض الزهور بدأت أعناق التوليب المحملة بالأزهار الحمراء والزرقاء تميل على العتمة ، وزحفت فى الممر قطة رمادية اللون وهى تجر بطنه، المنتفخة ، وخلفها قطة سوداء - ظلها . وأثار الظل وهو يتبع القطة فى سرعة وإصرار . أثار فى برتا رجفة غريبة .

وتراجعت من الشرفة وبدأت تذرع الغرفة ، ما أشد رائحة زهر النسرين فى الحجرة الدافئة ؛ أشد مما ينبغى . . لا . ورمت بنفسها على

مقعد كما لو كانت قد غلبت على أمرها وضغطت على عينيها بيديها وهى تهمس «أنا سعيدة . . سعيدة جداً» .

وكانت ترى بعينيها المغلقتين شجرة الكمثرى الجميلة بيراعمها المتفتحة تفتحاً كاملاً تقف كرمز لحياتها .

فعلاً أنها تملك كل شئ ، فهى شابة وحبها لهارى لم يتغير عما كان عليه منذ البداية وهما متفقان فى كل شئ ، ولها طفلة جديرة بالعبادة، وشئونهما المالية مستقرة ، ولها بيت وحديقة جميلة للغاية وأصدقاء - أصدقاء كتاب وشعراء وفنانون وهناك الكتب والموسيقى ولديها حائكة ثياب رائعة وستسافر وزوجها إلى الخارج فى الصيف ولديها طاهى ممتاز.

واعتدلت فى جلستها وهى تقول «أنا حمقاء . . .» وشعرت بدوار كما لو كانت قد سكرت . . . لابد وأنه الربيع .

نعم هو الربيع . . . والآن كان التعب قد ألح عليها بحيث لم ترغب فى الصعود إلى الدور الثانى لارتداء ملابسها .

ثوب أبيض وعقد وحذاء أخضر .

ولقد صممت على ارتداء هذا الطقم قبل أن تقف فى شرفة حجرة الطعام بساعات . . وأحدث عقد بيرتا حفيفا وهى تدخل الصالة فى رقة وتقبل مسز نورمان نايت التى كانت تخلع معطفها ، ودق الجرس ودخل أدى وارين فى حالته المعتادة من الحزن العميق . قال :

– أرجو أن لا أكون قد أخطأت فى المنزل .

وأشرقت برتا .

– لا أظنك قد أخطأت أو أرجو ذلك .

– لقد مررت بتجربة فظيعة مع سواق التاكسى . لقد كان غريباً للغاية، ولم استطع إيقافه وكلما طلبت إليه الوقوف ازدادت سرعته وفى ضوء القمر بدأ الرجل الغريب وقد انحنى على العجلة برأسه المسطحة مخيفاً للغاية .

وتظاهر أدى بالارتجاف وهو يزيح عن عنقه وشاحاً كبيراً من الحرير الأبيض ولاحظت برتا أن شرابه أبيض بدوره وقالت .

– ولكن هذا فظيع .

وقال أدى وهو يتبعها إلى حجرة الجلوس .

– نعم لقد كان حقاً أمراً فظيعاً ، لقد رأيت نفسى فى رحلة إلى الخلود فى تاكسى لا يعترف بالوقت .

كان يعرف عائلة نايت بل كان قد وعد نايت بكتابة مسرحية للمسرح الذى يعتزم افتتاحه .

وقال نورمان نايت .

– حسناً يا أدى . . . ماهى أخبار الرواية ؟

وقالت مسز نورمان :

– ولقد وفقت فى اختيار الشراب يا مستر وارين .

وأجاب (أدى) وهو يحدق النظر فى ساقيه :

– هل أعجب حـقك ؟ يخيل إلى أنه ازداد بيـاضاً بعد طلوع القـمر .

وأدار وجهه الحزين إلى «برتا» .

– لقد طلع القمر أتعرفين ؟

وأرادت «برتا» أن تصـيح ، أرادت أن تقول : نعم أنا مـتأكـدة أنه طلع ، أنا متأكدة تماماً .

إنه جذاب للغاية ، وكـذلك مسز «نايت» وهى متكورة فى جلسـتها وكذلك «نايت» وهو يدخن سيجارته ويلقى بالرماد فى المنفضة ويقول :

لماذا تأخر العريس .

– ها هو ذا .

وانفتح الباب الخارجى وانطرق وهو يقفل ، وصاح هارى .

– هالو ، سأكون معكم بعد خمس دقائق .

وجرى صاعداً السلم ، ولم تستطيع «برتا» أن تخفى ابتسامتها ، إنه يحب أن يفعل كل شئ فى اللحظة الأخيرة .

وكان هـارى يحب الحيـاة حبـاً جمـاً وكانت «برتا» تعـجب بذلك الاتجاه فـيه . وكانـت أيضاً تفهم حـبه للنزال ، ومـا من شئ أو إنسان يواجهه حتى يتبدى له لكى يختبـر مدى قوته وشجاعته ، حتى أنه يندفع أحياناً إلى مـعركة ، ويبدو مـضحكاً لمن لا يعرفه جيـداً ، ولكنها هى تعرفه وتفهمه .

وتحـدثت «برتا» وضحكت ونسـيت تمـاماً أن «بيـرل فولتـون» لم تحضر، حتى دخل «هارى» وقال :

– طبعاً لم تـحضـر «مـس فولتون» بعـد ، تماماً كما تـوقعت وقالت «برتا» .

– هل نسيت يا ترى ؟

وقال «هارى» :

– أظن ذلك ، هل لديها تليفون ؟

وقالت «برتا»

– هاهو تاكسى يقف بالباب .

ابتسمت ابتـسامة من يملك شيـئاً ويفخر به ، نفس الابتـسامة التى تبتسمها كلما كان اكتشافها جديداً وغامضاً ، وأضافت .

– أنها تعيش فى التاكسى .

وقال «هارى» فى برود وهو يقرع الجرس يطلب العشاء .

- سيؤدى بها ذلك حتما إلى السمنة ، والسمنة خطر داهم يهدد الشقراوات وتطلعت إليه «برتا» وهى تضحك محذرة .

- هارى ! أرجوك . ومرت دقيقة ، دقيقة أخرى قصيرة وهم ينتظرون ويضحكون ويتكلمون فى انطلاق واطمئنان أكثر قليلاً مما ينبغى ، ثم دخلت ، مس فولتون ، وكأنها صبت من فضة ، وعلى رأسها غطاء فضى يضم شعرها الذهبى الشاحب ، دخلت مبتسمة وقد مالت رأسها قليلاً وهى تقول :

- هل تأخرت ؟

وقالت برتا :

- أبداً تفضلى .

وأمسكت بذراعها ودخلت بها إلى حجرة المائدة .

لمسة هذا الذراع الرطيب . لماذا أججت فى قلب «برتا» نار السعادة فتوهجت ؟

ولم تنظر «مس فلتون» إلى «برتا» ولكنها نادراً ما تنظر إلى الناس نظرة مباشرة فرموشها الطويلة ترقد على عينيها ، والبسمة الغريبة الغير

مكتملة تروح وتجئ على شفتيها كما لو كانت تعيش بالسمع لا بالنظر ، ولكن «برتا» أدركت أن «بيرل فلتون» تمر بنفس الحالة النفسية التى تمر هى بها ، أدركت ذلك كما لو كانتا قد تبادلتا نظرة طويلة ودية مليئة بالمعانى، كما لو كانتا قد قالتا إحداهما للأخرى «وأنت أيضاً ؟» .

والآخرون «مسترومسز نايت» و «أيدى » «هارى» ملاعقهم ملاعقهم تعلو وتهبط ، يمسحون أطراف الشفاه بالفوط ، ويقطعون العيش ، ويبدلون الشوك والسكاكين ويتكلمون .

- لقد قابلتها فى المسرح وهى لم تقص شعرها فحسب بل أجرت عملية تجميل . واقتطعت جزءاً كبيراً من فخذيها وذراعيها وعنقها وأنفها المسكين أيضاً .
- أليست على علاقة مع مايكل أدت ؟
- الرجل الذى كتب مسرحية حب وأسنان صناعية ؟
- لقد أراد أن يكتب مسرحية لمسرحى الجديد من فصل واحد رجل واحد ينوى الإنتحار ، ثم يزن الأسباب التى تدفعه إلى الإنتحار بتلك التى تصده عنه وعندما يوشك أن يتخذ القرار النهائى وقبل أن يتخذه تسقط الستار .

وماذا عساه أن يسمى هذه المسرحية ؟ مغص معوى ؟

أنهم لا يقاسمونها شهورها ولكنهم أعزاء . . أعزاء . . وهى تحب أن تراهم يأكلون على مائدتها وتحب أن تقدم لهم أطيب الطعام والشراب وكان «هارى » يتمتع بعشائه وكان من عادته أن يتحدث عن الطعام وأن يجد لذة فى الحديث عن حبه للحم المحار الأبيض ولجيلاتى الفسدق الأخضر البارد ، كجفون الراقصات المصريات ، وعندما نظر إليها وقال

- «برتا» هذا النوع من الحلو جميل للغاية ، كادت تبكى كالطفل من شدة سرورها . لماذا تشعر الليلة بكل ذلك الحنان تجاه العالم بأكمله؟ كل شئ جميل . كل شئ فى موضعه . كل ما يحدث يملأ من جديد كأس سعادتهما المترعة . وفى عقلها مازالت صورة شجرة الكمثرى منطبعة لابد أنها فضية الآن . فضية فى ضوء القمر . فضية «كمس فولتون» التى جلست تدير حبة يوسفى بين أصابعها الرقيقة الشاحبة وكأن نوراً ينبعث منها .

والشئ الخارق ، الشئ العجيب الذى لا تستطيع أن تفسره هو كيف استطاعت هى أن تخمن حالة مس فلتون النفسية بهذه السرعة وبهذه الدقة؟ لأنها لم تشك لحظة فى أنها على حق فى تخمينها . ومع ذلك على أى أساس بنت هذا التخمين ؟ على لاشئ وقالت «برتا» لنفسها «أظن أن هذا الاتصال الروحى يحدث نادراً بين النساء ولكنه لا يحدث

أبداً بين الرجال . ولكنها قد تعطينى إشارة تؤكد صحة شعورى وأنا أعد القهوة فى حجرة الإستقبال» ولم تعرف ماذا تقصد بذلك ولم تستطع أن تتصور ماذا سيحدث بعد ذلك ، وبينما كانت برتا تفكر هكذا رأت نفسها تتكلم وتضحك . كان لابد أن تتكلم لكى تكتم رغبتها فى الضحك .

وأخيراً انتهى العشاء . وقالت «برتا» :

– تعالوا أريكم آلة القهوة الجديدة .

وقال هارى :

– أننا نشترى آلة قهوة جديدة مرة كل أسبوعين .

وأمسكت «مسز نايت» بذراع «برتا» وتبعتها «مس فولتون» ورأسها منحنية . وكانت النار قد خبت فى حجرة الإستقبال تاركة وميضاً أحمر .

وقالت مس «فولتون» .

– لا تضيئ النور لحظة . إن الحجرة جميلة هكذا .

وانكمشت إلى جانب المدفأة ، وقالت «برتا» لنفسها «إنها تشعر بالبرد دائماً. طبعاً دون جاكتتها الصوف الحمراء» وفى تلك اللحظة أعطت «مس فولتون» «لبرتا» الإشارة المنتظرة ، قالتا فى صوت نائم دافئ:

– هل عندك حديقة ؟

وجاء ذلك جـميلاً منهـا ، ولم تستطع «برتا» إلا أن تطيع وعـبرت الحجرة إلى باب الشرفة وأزاحت الستار عنه وفـتحت الباب على مصراعيه وقالت وهى تتنفس فى صعوبة «ها هى» .

ووقفت المرأتان جـنباً إلى جنب ترقبان الشجـرة الرقيقة المـثمرة . وبالرغم من أنها كـانت ساكنة للغاية إلا أنها بدت كـلهيب شمعـة يمتد ويعلو ويرتجف فى الهواء الصحو ، ويستطيل كلما أطالتا النظر حتى يكاد يلمس حافة القمر الفضى المستدير .

كما طالت وقفتهما إذ ذاك ؟ كلتاهما ؟ كما لو كانت هذه الدائرة من النور السمـاوى قد أسرتهـما فى نطاقـها ؟ كم طالت وقفـتهمـا ، تفهم إحداهما الأخرى وكـأنهما مخلوقتان من عالم آخر تعـجبان لم وجدتا فى الأرض بهذا الكنز من السعادة التى تتـأجج فى صدريها وتتساقط فى زهور فضية من شعريهما وأيديهما ؟

كم وقـفتـا على هذه الحـالة ؟ دهراً أم لحظة ؟ وهل همـست «مس فولتون» قائلة «نعم ذلك تماماً» أن تخيلت «برتا» أنها همست بذلك .

وانبعث النور الكهربائى فـجأة وأعدت «مسز نايت» القهـوة وقال لها «هارى» :

– لا ياعزيزتى لا تسـأليني عن طفلتى فأنا لا أراها مـطلقا ، ولن أبدأ بالاهتمام بها حتى تتخذ لنفسها عشيقاً .

وأزاح «مستر نايت» المونو كل عن عينيه ثم وضعه من جديد ، وشرب «إدى وارين» القهوة ووضع القدح والألم يرتسم على وجهه وكأنه وجد فيه عقرباً .

- إنى أود أن أعطى مجالاً للكتاب ، وأنا أعتقد أن «لندن» مليئة بالأفكار لمسرحيات لم تكتب ، وكل ما أريد أن أقوله هو : ها كم المسرح فتقدموا .

- أتعرفين ياعزيزتى ، سأقوم بعملية «ديكور» فى منزل «جاكوب ناثان» وتغرينى فكرة استخدام رسم السمك المقلى كأساس «للديكور» فتكون ظهور الكراسى على شكل المقلاة بينما تزين الستائر رسوم للبطاطس المحمر بالبرودرى .

- المشكلة بالنسبة لكتابنا أنهم مازالوا رومانتيكيين .

- قصيدة مربعة عن فتاة اغتصبها شحاذ بلا أنف فى غابة صغيرة وغرقت «مس فولتون» فى أعمق الكراسى ومر «هارى» بالسجائر ؛ وحين وقف أمام «مس فولتون» قال بجفاف «مصرى؟ تركى ؟ فرجينى؟» أدركت «برتا» أنه يكرهها وأدركت أيضاً أن «مس فولتون» قد شعرت بهذه الكراهية ؛ وغضبت حين قالت «أشكرك لن أدخن» .

وقالت «برتا» فى عقلها .

- أرجوك ياهارى لا تكرهها ؛ أنت مخطئ فى حقها ، إنها رائعة . رائعة ؛ وبالإضافة إلى ذلك كيف تشعر بالكراهية لشخص يعنى الكثير بالنسبة إلى ؟ سأحاول أن أشرح لك الليلة ونحن فى السرير ما مر بينى وبينها والشعور الذى تقاسمناه أنا وهى .

وعند هذه الكلمات الأخيرة قفزت فكرة عجيبة بل ورهيبة إلى عقل «برتا» وابتسمت لها هذه الفكرة العمياء همست فى أذنها : حالا حالا سيخرج هؤلاء الناس ؛ وسيصبح البيت ساكناً ، وستخبو الأنوار وأنت وهو مع بعض ، على أنفراد فى الغرفة المظلمة ، وفى السرير الدافئ .

وقفزت برتا من مقعدها وجرت إلى البيانو وصاحت .

- من المؤسف أن أحداً لا يلعب البيانو .

لأول مرة فى حياتها تشتهى «برتا يونج» زوجها .

كانت تحبه ، كانت بالطبع تحبه من كل الوجه . ولكن لا من هذا الوجه . وقد أدركت فى بداية زواجهما أنه يختلف عنها ، وكثيراً ما ناقشا الموضوع وحين اكتشفت أنها باردة سبب الاكتشاف لها قلقا مريعاً فى بادئ الأمر ثم زال قلقها تدريجياً .

ولكن الآن . . فى حرارة . . فى حرارة واضطربت الدنيا فى جسدها المشتاق وقالت «مسز نايت» .

«لابد لنا من الانصراف ياعزيزتى» .

وقالت «برتا» :

- سأصحبكم إلى الصالة ، لقد أسعدنى وجودكم معنا .

وقال هارى .

- كأساً من الويسكى قبل أن تنصرف يا «نايت» .

- كلا ، أشكرك ياعزيزى .

وضغطت برتا على يد «نايت» شاكرة وهى تصافحه وصاحت من على السلم الخارجى . . «ليلة سعيدة . . مع السلامة» . وكأن روحها تودعهما لآخر مرة .

- إذا ستركب جزءاً من الطريق معى .

- سأكون شاكراً إن لم أواجه رحلة طويلة فى التاكسى وحدى بعد تجربتى المخيفة .

- إذا سأذهب لارتداء معطفى .

ومشت «مس فولتون» فى اتجاه الصالة وتبعتها «برتا» وكاد «هارى» يدفعها وهو يمر بها ويسبقها خلف مس فولتون ويقول :

- دعينى أساعدك فى ارتداء معطفك .

وتركتـه «برتا» يذهب وحده وأدركت أنـه ندم على وقاحتـه مع مس فولتـون ، كم هو طفل فى بعض تصرفاتـه ، طفل منطلق وعلى سجيـته وبقيت هى وأدى بجانب المدفاة .

وقال «أدى» فى صوت ناعم :

– هل قرأت قصيدة «بلك» الجديدة «قـائمة طعام» ؟ أنها رائعة للغاية ، هل لديك نسخة من مجموعته الأخيرة ؟ بودى أن أريك القصيدة .

وقالت «برتا» :

– نعم لدى نسخة .

ومشت فى خـفة إلى مـائدة تواجه حجـرة الاستقـبال وخلفـها أدى يمشى دون أن يحدث ضجة وأمسكت بالكتاب الصغير وأعطته له دون أن تحدث صـوتاً ، وبينما انـهمك هو فى البـحث عن القصـيدة أدارت هى رأسهـا إلى الصالة ورأت . . . «هارى» يمـس بمعطف «مس فـولتون» و «مس فولتون» قـد أعطته ظهرها وأحنت رأسها ، ورمى بالمـعطف جانبا وأحاط كـتفيـها بيديه وأدارها إليـه فى عنف وقالت شـفتاه «أنا أعـبدك» ووضعت «مس فولتون» أصابعها الفضيـة على خديه وابتسمت ابتسامتها الساهية وارتجفت فتحتـا أنف «هارى » وتكور فمه فى تكشيرة كريهة وهو يهمس «باكر» وبجفونها قالت «مس فولتون» «نعم» وقال «أدى» .

- هاهى القصيدة . لماذا يكون الحساء دائماً حساء الطماطم ؟ أليس فى هذا السطر واقعيـة عميقة ؟ ألا تشعرين بذلك ؟ أن حـساء الطماطم خالد بشكل مخيف .

وقال «هارى» بصوت مرتفع للغاية وهو فى الصالة .

- هل أطلب لك تاكسى بالتليفون ؟

وقالت «مس فولتون» :

- لا ضرورة لذلك .

واقتربت من «برتا» وقدمت لها أصابعها الرقيقة .

- طابت ليلتك . أشكرك كثيراً .

وقالت «برتا» :

- طابت ليلتك .

وبقيت «مس فولتون» محتفظة بيد «برتا» وهى تهمس .

- ما أجمل شجرتك ، شجرة الكمثرى .

ثم ذهبت و «أدى» يتبعها كالقط الأسود يتبع القط الرمادى .

وقال «هارى» وهو فى غاية التماسك والهدوء .

- سأطفئ الأنوار .

«شجرتك الجميلة . شجرة الكمثرى - شجرة الكمثرى)

وجرت «برتا» إلي الشرفة وفتحت مصراعيها وصاحت .

- ياإلهى . . . ماذا سيحدث الآن ؟

ولكن شجرة الكمثـرى كانت جميلة كما كانت دائماً ومليـئة بالثمار وساكنة كشأنها دائماً .

١٤ - « شكراً يا مدام »

لانجستون هيوز

كانت سيدة ضخمة وكانت تحمل حقيبة يد ضخمة تحتوى على كل شئ عدا المطرقة والمسامير ! وكانت الحقيبة تتدلى من كتفها بحزام جلدى طويل . وبينما كانت تسير وحدها والساعة تقترب من الحادية عشرة مساء إذ جرى صبى خلفها وحاول اختطاف حقيبتها . وانقطع الحزام حين شده الصبى من الخلف ولكن ثقل الصبى وثقل الحقيبة معاً أفقداه توازنه وهكذا فبدلاً من أن يولى الأدبار بأقصى سرعة (كما كان يتمنى) ، وقع على ظهره فوق الرصيف وارتفعت قدماه فى الهواء . والتفت السيدة الضخمة وركلته ركلة مباشرة فى مؤخرته - وكان يرتدى سراويل جينز زرقاء - ثم انحنت وأمسكت بتلابيب الصبى قابضة على فتحة قميصه وظلت تهزه حتى أصطكت أسنانه .

وقالت السيدة : «وطى ! جيب الشنطة يا ولد ! حطها هنا» ، كانت لا تزال تمسكه لكنها أنحنت حتى تتيح له أن يأتى بحقيبة يدها ثم قالت: «هيه . . ما نتش مكسوف من نفسك ؟ .

كانت لا تزال تمسكه بتلابيبه - ورد الصبى «فعلاً» .

وقالت السيدة : «عملت كده ليه ؟» .

وقال الصبى : «ما كنش قصدى» .

وقالت : «كداب !» .

كـان بالطريق عدد من الـمارة فـتطلع البـعض إلى ما يجـرى وظل البعض واقفاً .

وقالت السيدة : «إذا سبتك حتجرى ؟» .

ورد الصبى : «طبعاً» .

وقالت السيدة : «يبقى موش حاسيبك» . وظلت قابضة على قميصه .

وهمس الصبى «حقك على يا مدام أنا آسف . .»

- كده كده ! ووشك وسخ ! أنا عايزه أغـسل لك وشك ! مافيش فى بيتكم حد قال لك تغسل وشك ؟» .

ورد الصبى : «لا» .

- «يبقى لازم يتغسل الليلة» وانطلقت السيدة تسير فى الشارع وهى تجر الصبى المذعور خلفها .

كان يبـدو فى الرابعة عشـرة أو الخامسة عـشرة . ضعـيف البنية ، نحيفاً معروقاً ، ويرتدى حذاء من الكاوتش وسراويل جينز زرقاء .

وقالت المرأة : «لو كنت ابنى كنت علمتك الصح من الغلط . خلينى بس أغسل لك وشك الليلة . انت جعان . ؟» .

وقال الصبى وهى تجره خلفها : «لا . . . بس لو سمحتى سيبينى» .

وقالت السيدة : «أنا كنت ضايقتك فى حاجة وأنا باعدى ع الناصية ؟» .

وقالت السيدة : «ومع ذلك احتكيت أنت بى ! إذا كنت فاكر أن الاشتباك ده حيتفك بسرعة تبقى غلطان . حتشوف ! وساعة ما أخلص منك مش حتقدر تنسى مدام لويلا بيتس واشنطن جونز» .

وبدأ العرق يتصبب من جبهة الصبى وبدأ يحاول التملص من قبضتها . وتوقفت السيدة جونز وجذبته بعنف حتى أصبح أمامها ثم أطبقت بيدها على رقبته واستمرت فى جره فى الطريق . وعندما وصلت إلى منزلها دفعت الصبى إلى الداخل فعبرا الصالة ووصلا إلى غرفة ضخمة فى مؤخرة المنزل بها مطبخ صغير . وأضاءت النور وتركت الباب مفتوحاً . وتناهت إلى أسماع الصبى أصوات ضحكات وأحاديث السكان فى المنزل الضخم - كل فى غرفته - وقد ترك بعضهم الباب مفتوحاً فأدرك الصبى أنهما ليسا وحدهما فى المنزل . وكانت السيدة ما تزال تطبق على رقبته فى وسط الغرفة .

قالت : «أسمك ايه ؟» .

وأجاب الصبى : «روجر» .

«طيب ياروجـــر . روح الحـوض اللى هناك ده واغـــسل وشك» . وأخيراً أخلت سبيله . ونظر روجر إلى الباب ، ثم نظر إلى السيدة . ثم إلى الباب ، ثم اتجه إلى الحوض .

– خلى الحنفية مـفتوحة شويـة لحد الميه ما تسـخن . خد «آدى فوطة نضيفة» .

وقال الصبى وهو ينحنى على الحوض «انتى حتودينى السجن ؟» .

وقالت : «مش بوشك الوسخ ده ! ماقدرش أوديك أى حته ! حاجة عجيبة ! أنا راجعة البيت أحـضر لقمة أكلها تقوم تخطف شنطتى! يمكن أنت كمان لسه ما اتعشتش – والوقت متأخر قوى – مش كده ؟» .

وقال الصبى : «مافيش حد فى بيتنا» .

وقالت : «يبقى حتتعشـى سوا . أنا واثقة أنك جعان – وإلا كنت جعان لما حاولت تخطف شنطتى» .

وقال الصبى : «كنت عايز أشترى جزمه شاموا زرقا» .

وقالت السيـدة لويلا بيتس واشنطن جونز «واللى يعوز جزمـه شاموا زرقا يقوم يخطف شنطتى ؟ كان حقك تطلبها منى !» .

وقال الصبى : «أفندم ؟» .

وتطلع إليها الصبى والماء مازال يتساقط من وجهه . وتوقف الحديث برهة طويلة - برهة طويلة جداً . وبعد أن جفف وجهه وقف حائراً لا يدرى ما يصنع فجفف وجهه مرة أخرى ثم استدار كأنما يتساءل فى نفسه عن الخطوة التالية . ورأى الباب مفتوحاً : أنه يستطيع أن ينطلق إليه عبر الردهة ويجرى ويجرى - أنه يستطيع أن يجرى ويجرى ويهرب ! كانت السيدة تجلس على الأريكة التى تستخدم سريراً . وبعد قليل قالت : أنا كمان كنت صغيرة وياما اشتهيت حاجات ما قدرتش أشتريها !

وتلا ذلك صمت طويل . وفتح الصبى فمه ثم قطب جبينه دون أن يدرى وغمغمت السيدة ثم قالت «كنت فاكرنى حاقول أن أنا ما حاولتش أخطف الشنط .. مش كده ؟ غلط ! مش ده اللى كنت حاقوله» . وتوقف الحديث . وحل الصمت ثم عادت تقول «أنا كمان عملت حاجات كثيرة ماقدرش أقول لك عليها يا ... ابنى - ولا حتى أقولها لربنا ولو أنه عارفها طبعاً . اسمع ! كانت تستنى شوية هنا لحد ما أحضر حاجة ناكلها - وخد المشط ده وسرح شعرك كده عشان يبقى شكلك معقول» .

وكان فى ركن آخر من الغرفة موقد صغير وثلاجة صغيرة يحجبهما ستار . ونهضت السيدة جونز واختفت خلف الستار ولكنها أقلعت عن

مراقبة الصبى (خشيـة الهرب) كما تركت حافظة نقودها على الأريكة ولم تعـد تلتفت إليـهـا . ولكن الصبى قـد حـرص على أن يجلس فى ركن الغرفة البـعيد قائلاً فى نفسه أنهـا يمكن إذا شاءت أن تراه فى مكانه هذا بطرف عينهـا . لم يكن واثقاً أن السـيدة يمكن ألا تثق فيه - ولم يكن يريد ألا يكون أهلا للثقة الآن .

وسألها الصـبى : «مش عايزة حاجة أجيبـهـا لك من الدكان ؟ لبن وإلا حاجـة ؟» وأجابت «ما أظنش ! إلا إذا كنت أنـت عايز لبن حلو ! أصلى حاعمل كاكاو ، باللبن اللى فى العلبة دى» .

وقال الصبى «مش بطال» .

ووضـعت السيـدة على النار بعض الفـاصـوليا المطـبوخـة باللحم لتسخينها إذ كانت باردة فى الثلاجة ثم صنعت الكاكاو وأعدت المائدة . ولم تسأل المرأة الصـبى عن مكان أقامته أو أهله أو أى أسـئلة أخرى قد تسبب له حـرجاً . ولكنهما تقـدما للطعام وجعلت تقص عليـه طرفا من أخبارها - فقالت أنها تعـمل فى صالون تجميل بأحد الفنادق وأن العمل يستـمر حتى سـاعة مـتأخرة ، ووصـفت له عملها بالتـفصـيل قائلة أن الصالون ترتاده السيدات من جميع الأشكال - ذوات الشعر الأشقر وذوات الشعر الأحمـر والأسبانيات . ثم قطعت نصف فطيرتها التى دفـعت فيها عشرة سنتات وقدمته له .

وقالت : «كل كمان يابنى» .

وبعد انتهاء الوجبة نهضت وقالت : «ودلوقتى - اسمع ! خد العشرة دولار دول واشترى لك جزمة شاموا زرقا . والمرة الجاية ! أياك تغلط وتنشل شنطتى ولا شنطة حد تانى ! فاهم ؟ الجزمة اللى تشتريها بفلوس حرام حتولع رجليك . يالله ! أنا لازم أستريح دلوقت . اتفضل ياريت من هنا ورايح تعقل وتبطل الشقاوة يابنى» .

وتقدمت أمامه عبر الردهة إلى الباب الأمامى وفتحته له . تصبح على خير ! وبلاش شقاوة ياولد ! - قالت له ذلك وهى تنظر إلى الطريق .

وأراد الصبى أن ينطق بكلمات أخرى - غير «شكراً يامدام» - إلى السيدة لويلا بيتس واشنطن جونز ولكنه لم يستطع عندما استدار ونظر خلفه إلى السيدة الضخمة الواقفة بالباب . وبصعوبة خرجت من فمه كلمة «شكراً» قبل أن تغلق السيدة الباب . ولم يرها الصبى بعد ذلك أبداً

١٥ - الأرنب البرية

جراتسيا ديليدا

كانت فى وسط النهر العريض جزيرة صغـيرة ، تتلألأ فى منتصفها بحيرة صغيرة ، أو بركة ذات لون فضى يضرب إلى الخضرة ، تحيط بها أشجـار الحور والصفـصاف ، وشجـيرات من السنط البرى ، وأعـشاب طويلة غضّة مخمليـة ، مرقّشة بزهور أرجوانية غريبـة من عباد الشمس ، وكانت صورة الطبيعة كلها تنعكس فى هذه البركـة الصغيرة ، فتبدو مثل لوحة أجمل من الواقع وأبعد ما تكون عنه .

كان جـو الخيال يسـود المكان كله ، فكانت سماء فـصل الخريف نهاراً تحـفل بالألوان التى تتغـير ، وبالسـحب ذات المزاج المـتقلب ، وكانت السماء ليـلاً يسطع فيها القمر الذى يبـدو ضخمًا يضرب لونه إلى الحمرة ، وتلمع فيهـا النجوم ، وتتماوج فى مرآة البحيرة العمـيقة أشباح شجر الحور .

وذات مسـاء وصل الصياد فـألقى مرساة قـاربه على الضفاف الهـشة للجزيرة المهجورة ، مخلفًا آثار أقدامه وهو يسترق الخطو فوق الرمال التى

لم تطأها قدم من قبل ، وشاهد القمر الضخم الأحمر وهو يشرق بين أشجار الحور ، ثم شاهده فى صورة أجمل منعكسًا فى مياه البركة الصغيرة . وتوقف لحظة وقد ثبت بصره على الصورة المنعكسة الوضاءة ، وشعر بسحر ذلك العالم المجهول والسماء البعيدة ذات الأسرار ، والتى كانت تبدو فى قلب الأرض نفسها ، إن صح هذا التعبير . وكانت هناك أرنب برية عجوز تعيش بين أشجار السنط على الشاطىء ، فشاهدت الرجل المجهول ، وهو عدوها اللدود ، فلاذت بالفرار وجعلت تعدو بخفة مسافة طويلة دون أن تحدث صوتًا ، وقد تصلبت أذناها وانتصبتا مثل نصل سكين جهزته للدفاع عن نفسها .

ولم يتخل الرجل عن أحلامه ، وإن تخلت الأرنب عن أحلامها ، بعد أن أفلتت من الموت . وعندما وصلت إلى أعماق الغابة ، قبعت تحت شجيرة كثيفة ، وانتظرت ردحًا طويلاً ، تصيغ السمع وتشم الهواء بأنفها الصغير المرتعش ، وكانت دقات قلبها تتوالى بسرعة لم تعهدها منذ شهور طويلة .

والواقع أن الفيضانات الأخيرة أدت إلى إختفاء جميع الأرانب البرية من الجزيرة ، إذ قُتل بعضها بالأسلحة النارية ، وقنص صيادو الأسماك بعضها فى شباكهم ، وجرف النهر الغاضب البعض الآخر إلى حتفها ، فتخيلت الأرنب العجوز أنها أصبحت سيدة المكان وحدها ، وجعلت تحلم بأن تقضى ، وحدها وفى هدوء ، ما بقى لها من العمر فى هذا

المكان ، كانت عجوزاً ومرهقة وتشعر بالوحشة ، بعد أن هجرها أولادها ، ولم يعد الذكور يطلبونها ، فلا بأس من الحياة فى سكون فى هذا الركن المنعزل من الجزيرة ، دون التعرض للخوف أو للخطر .

أما حين يأتى الربيع بالسيول فكانت تقيم بين بعض جذوع الأشجار التى يجرفها السيل إلى الضفاف المرتفعة فوق البركة الصغيرة ، إذ لم يكن أحد يهتم بأن يعبر منطقة الرمال التى تعترضها المستنقعات فى الجزيرة ، بل وبعد يبوس الرمال ونمو الكلأ على شواطىء البركة ، لم يكن صائد الحيوان أو صياد السمك يزور الجزيرة .

السكون والعزلة . . ولم تكن تسمع إلا البلابل على أغصان الحور السامقة وهى تغنى ألحانها لتصاحب خشخشة الأوراق التى تحيّى المياه الجارية ، وقالت الأوراق التى يغمرها ضوء القمر الساجى :

«الوداع أيتها المياه ! الحركة أفضل من السكون !» .

وأجابت المياه وهى تهرع نحو البحر :

«الوداع ! السكون أفضل من الجرى إلى الأبد !» .

وكانت الأرنب العجوز تصغى لذلك الحوار ، الذى أفعم قلبها بالغبطة ، إذ شعرت أنها أقوى من الأشجار وأسرع عدواً من الماء ، وأحست بالرضى لقدرتها على السكون وعلى الجرى حسبما تشاء .

ومرت الشهور وصمتت البلابل ، وبدأت أشجار الحور تسقط أوراقها، وشعرت الأرنب العجوز أنها لم تعهد مثل هذا الهدوء وهذا الأمن من قبل فى حياتها ، وها هو ذا الشبح المجهول الفتاك يعود فجأة إليها . ترى لماذا عاد ؟

وقبعت فى مكمنها تحت الشجيرات ، وقد ثبّتت حركة عينيها الكبيرتين تحت جفنيهما الحمراوين ، وتطلعت فرأت على البعد منطقة رملية يسطع عليها ضوء القمر ، يحدها دغل كثيف ، ومساحة من الخلاء الذى تمتعت فيه هى أيضًا ، فى أيام صباها الهانئة ، بالتواثب وتعقب ظلها على الأرض أو انتظار حبيبها فى الليالى التى يسطع فيها ضوء القمر.

شاهدت ظلا يتحرك على الرمال ، يعقبه ظل آخر ، وظنت الأرنب العجوز أنها تحلم ، ولكن الظلين عادا فتوقفا ثم استأنفا لعبتهما العجيبة . لم يعد لديها أى شك : كانا أرنبين بريين . وهنا فهمت العجوز سبب عودة عدوها المجهول ، ذلك الصياد فى تلك الليلة إلى الجزيرة .

وهنا فار غضب عارم ، بقدر ما يمكن لغضب الأرنب أن يكون عارمًا، فى قلبها من جديد ، ولكنها لم تقنع نفسها أنها أخطأت بالبقاء وحيدة فى الجزيرة ، بل تصورت أن الأرنبين قد وضعا أيديهما دون وجه حق على جزيرتها .

كان الهرم والعزلة قد جعلاها شرسة وأنانية ، حتى إن غضبها من ظهور الأرانب كان أكبر من غضبها لرؤية عدوها المجهول ، وعندما أقدمت على الخروج من مخبئها وخطت نحو الساحة الرملية ، وأدركت أن الأرنبين كانا عاشقين ، ازداد عنف غضبها وعمقه .

ولكن ذلك لم يمنع الأرنبين من مواصلة اللعب والتواثب والعدو معًا، وكانت الأنثى سمينة ، وتكاد أن تكون شفافة الأذنين ، فلونهما وردى من الداخل وداكن من الخارج ، وكانت تهوى اللهو واللعب ، إذ جعلت تجرى حول الذكر وتتظاهر بأنها لا تراه ، ثم ترقد على الرمال ، فإذا اقترب حبيبها منها هبت وجرت مبتعدة عنه . أما الذكر فكان نحيلاً أضناه العشق والسرور ، فلم يكن ينظر إلا إليها ، ويتعقبها ويلقى بنفسه عليها دون هوادة . كانا سعيدين ، مرحين ، لا يحملان همًا من هموم الدنيا ، مثل جميع العشاق السعداء .

ولم تكل عين الأرنب العجوز من النظر إليهما ، وحتى حين كان الزوجان الجميلان يختفيان من الساحة بسبب الإرهاق من فرط التواثب والملاعبة ، كانت العجوز لا تبرح مكمنها ، وتظل عينها على الساحة ، وأذناها منتصبتان ترتعشان مثل ورقتين من أوراق الشجر الجافة فى مهب الريح .

ومرت الليالى والأيام ، وصار القمر فى المحاق ، وعاد الظلام الدامس فى كل مساء ، ولكن الأرنب العجوز لم تعد إلى ضفاف البركة

خوفًا من الصياد ، بل ظلت مختبئه فى أحلك أعماق الغابة ، ولم تكن تخرج من مكمنها إلا لمامًا ، فتقترب من الساحة أثناء الليل لمشاهدة العاشقين فى لهوهما ومراحهما .

وذات يوم سمعت طلقة نارية ، ثم طلقة أخرى ، وبعدها طلقات ، بعيدة وغامضة ، كأنها الأصداء تتنادى من بعيد .

كانت الليلة دافئةً ، بليلة النسيم ، والهلال قد مال للغروب خلف أشجار الحور العارية من أوراقها ، كأنما جعلها الله ليلة للعشاق المخلصين، ولكن العاشقين لم يعودا للظهور .

لابد أن العدو المجهول قد ظفر بهما ، واستبدت فرحة النصر العارمة الطاغية بالأرنب العجوز حتى بدأت تتواثب على الرمال ، حيث كانت آثار أقدام العاشقين المسكينين ما تزال بادية .

ولكنها سمعت وقع أقدام بشرية فلاذت بالفرار ؛ كانت تلهث ولا تستطيع رؤية شيء وهى تنطلق سارية خلال الغابة حتى كادت أن تصل إلى الضفة الأخرى للنهر ، وهناك قبعت فى مخبئها حتى انبلج الفجر فى تلك البقعة التى لم ترتدها من قبل .

وأفاقت عندما بزغ الفجر على الغابة التى كانت غلالات الضباب ما تزال تلفها ، وتتساقط من الشجيرات قطرات ضخمة من ندى الصبح البارد ، فخرجت الأرنب تستطلع الأحوال وهبطت إلى حفرة صغيرة ،

حيث وقعت عيناها على مشهد أثار مشاعرها ومس أوتار قلبها ، على الرغم من قسوة طبعها ، إذ وجدت جُحْرًا فيه أرنبان صغيران لم يتجاوزا العام الأول من العمر ، صغيران مكتنزان ، آذانهما شفافة ، وأعينهما كبيرة ثابتة براقة ، وحدست أنهما من أطفال الأرنبين اللذين قتلهما الصياد .

كان أحدهما يلعق رأس أخيه وأذنيه ، وعندما لمح الأرنب العجوز بدأ يتطلع إليها ، ومد أنفه يتشمم الهواء ثم عاد أدراجه ، خائفًا مما تجاسر على فعله . ومضت الأرنب العجوز إلى حال سبيلها ، ولكنها عادت فيما بعد وجعلت تشاهد الصغيرين اليتيمين وهما يلعبان ويلعقان بعضهما البعض :

كان النهار باردًا حزينًا ، وبدأت الأمطار تهطل فى المساء ، فعادت الأرنب العجوز إلى مكمنها القديم فوق جذوع الأشجاع ، على الضفة المرتفعة للبركة . واستمر هطول الأمطار ولكن ذلك لم يزد من حزن الأرنب العجوز ، إذ إن الأمطار تعنى فى الواقع نهاية الجو الصحو ، ومن ثم ضمان أمنها وعزلتها ، وسرعان ما تبتل الرمال وتفقد صلابتها فلا يجرؤ صياد على عبور الغابات الرطبة العارية .

وما عساه يكون من أمر الأرنبين المسكينين ؟ ما عساه يحدث لهما فى ذلك الجحر الصغير ؟ هل تذكرت الأرنب العجوز عاشقة العزلة أطفالها الصغار ، ودفء جحرها ، ومسرات الأمومة ؟ من الصعب أن

نقطع فى هذا برأى ، ولكنهـا على أية حال تـركت مخبـأها فى الفـجر وذهبت لمشاهدة الصغيرين من جديد . كان المسكينان نائمين ، أحدهما فوق الآخر ، ولابد أنهما كانا يتوقعـان عودة أمهما ، حتى فى نومهما ، فحـينما اقتربت الأرنب العـجوز منهمـا ، مد كل منهما أنفـه وهز أذنيه الصغيرتين .

وتطلعت الأرنب العجوز إليهما بعينيها الكبيرتين المبللتين ، ومدت أنفها هى الأخرى كأنما لتشم رائحة الجحر .

وعادت الأمطار إلى الهطول ، وأحـاطت بالجزيرة واكتنفتـها غلالة رمادية من الضباب والمطر ثمانى ليـالٍ وثمانية أيام ، حتى بدا أن البركة قد مُلئت بحـبر أسود لامع ، وظلت المـياه ترتفع وتعلو حـتى كادت أن تصل إلى مَعْصم الأرنـب العـجـوز . وحـاولت أن تذهب لـمـشـاهدة الصـغيـرين من جـديد ، ولكن الرمال كـانت قـد ساخت بالقـرب من معـصمها فى عـدة أماكن ، وتغلغلت الميـاه فيهـا جميعًا ، فـأصبح من المـحال الوصـول إلى الوادى الصـغيـر . وعاد الـمطر يهطل ويهطل ، وعلت ضجة جهمة من بعيد كأنها أصوات جيش الغزاة العادين الزاحفين على البر مدمرين كل ما فى طريقهم .

كان ذلك الصـوت مألوفًا للأرنب العـجوز ، فهـو صوت حشـرجة النهر الطاغـى فى طوفانه ، ولم تجرؤ على مـغادرة مكمنهـا ، وإن كان

الجوع يقرصها ، إذا لم تتناول من الطعام سوى بعض وريقات جافة . واضطرت فى أحد الأيام إلى الصيام بعد أن ارتفعت المياه فوصلت إلى جذوع الأشجار ، وكانت أى حركة تكتنفها الأخطار .

وظلت المياه تعلو وتعلو ، وكانت رمادية اللون ، غامضة صامتة ، فبدا أن الأرض والهواء والسماء قد استحالت جميعًا إلى كتلة واحدة من المياه العكرة الباردة .

ولكن الأمطار توقفت فى مساء اليوم الثامن ، وانفرجت السحب فجأة عن صفحة السماء ، فظهر أديمها الأخضر الشاحب هنا وهناك من خلال الضباب الرمادى ، ومن فرجة بين السحب ، وفى أعماق منجم قريب ، سطع ضوء القمر المُفَضَّض المذهّب .

وهبطت المياه ، فبدا كأنها تتراجع مرهقة من جهود الغزو ، حاملة معها غنائم من أوراق الشجر وأغصانه والرمال والكائنات الميتة .

وأشرقت الشمس فى اليوم التالى على المكان الذى أصابه الدمار ، فتمكنت الأرنب المسكينة التى تعانى من الجوع الشديد والبلل ، من ترك مخبئها وجعلت تُدفىء نفسها وتتطلع إلى ما حولها ، فوجدت أن البركة قد اختفت ، وأن جدولاً يختلط الماء فيه بالطين يسير الهوينى تحت الضفة العالية ، التى زاد ارتفاعها فغدت مثل السد ، ولا تزال المياه تحمل غنائمها وضحاياها .

وفجأة شاهدت الأرنب على سطح الماء ، بين الأغصان العارية والأوراق الجافة والآلاف المؤلفة من الفقاقيع الطافية كأنها حبات عقد انتثر، أرنبين صغيرين ، ميتين ، طويلين ونحيلين ، أعينهما مفتوحة ، وآذانهما مشرعة ، يجريان بسرعة على صفحة الماء ، بالقرب من بعضهما البعض ، مثل أخوين أخلصا الحب فلم يفترقا حتى بعد الموت .

لقد أصبحت الأرنب العجوز وحيدة حقًا فى الجزيرة .

١٦ - الضبـع

بول باولز

كان طائرُ لَقْلَق ماراً بـإقليم صحراوى فى طريقه إلى الشـمال . كان ظمآن وقـد شرع يبحث عن ماء . وعنـدما وصل إلى جبال كـانج إلجار Khany el Ghar أبعد بركـة فى قاع مَسيل (وادٍ) . فطار بين الصـخور وحطّ على حافة الماء . ثم دخل فيه وشرب .

وفى تلك اللحظة أقبل ضبع يظلع وإذ رأى اللقلق واقفاً فى الماء قال : «هل كانت رحلتك طويلة ؟» . لم يكن اللقلق قد رأى ضبعاً من قبل، ففكر قائلاً : «وهكذا فهـذا هو الضبع» . وقف ينظر إلى الضبع لأنه قيل له إن الضبع إذا تمـكن من أن يريق قليلاً من بوله على أي كـائن ، فإنه سوف يتعين على ذلك الكائن أن يسير وراء الضبع إلى أى مكان يريده له هذا الأخير .

وقال اللقلق : «سـرعان ما سيحل فـصل الصيف . إنى فى طريقى إلى الشمال وفى الوقت ذاته ، سار موغلاً فـى البركة حتى لا يكون قريباً من الضبع إلى ذلك الحـد . كان الماء هنا أعمق ، وقد كـاد يفقد توازنه

وتعين عليه أن يرفرف بجناحيه كيلا يقع . وسار الضبع إلى الجانب الآخر من البركة ونظر إليه من هناك .

ومالبث الضبع أن قال : «إنى أعرف ماذا يدور بخاطرك . إنك تصدق القصة التى تسمعها عنى . أتظننى أملك تلك القدرة ؟ لعل الضباع قد كانت كذلك منذ زمن بعيد . لكنها الآن لا تختلف عن غيرها من المخلوقات أستطيع أن أبللك ببولى من هنا إذا أردت . ولكن ما الداعى؟ إذا أردت ألا تصادقنى فاذهب إلى منتصف البركة وابق هناك .

نظر اللقلق حوله فى أنحاء البركة ورأى أنه ليس فيها بقعة يستطيع الوقوف بها بحيث يكون بعيداً عن منال الضبع .

وقال اللقلق : «لقد انتهيت من الشراب» . ثم بسط جناحيه ورفرف خارجاً من البركة . عند حافتها ركض مسرعاً إلى الأمام وعلا فى الهواء. دار فوق البركة ملقياً ببصره إلى الضبع .

وقال : «وهكذا فأنت الكائن الذى يسمونه الغول . إن العالم ملئ بالأشياء الغريبة» .

فرفع الضبع إليه بصره . كانت عيناه ضيقتين معوجتين وقال : «لقد جلبنا الله جميعاً إلى هنا ، أنت تعرف ذلك أنت الذى يعرف عن الله».

فطار اللقلق على مستوى أدنى قليلاً ، وقال «هذا حق . ولكن يدهشنى أن أسمعك تقول ذلك . إن سمعتك بالغة السوء ، كما قلت أنت نفسك منذ هنيهة . فالسحر مناف لمشيئة الله» .

وهنا أمال الضبع رأسه وصاح : «وهكذا فأنت مازلت تصدق هذه الأكاذيب عن جنسى ؟» .

قال اللقلق : «إنى لم أر مثانتك من الدخل . ولكن لماذا يقول كل امرئ أنك تستطيع أن تصنع بها سحراً ؟» .

قال الضبع : «إنى لإتساءل لماذا منح الله رآساً ؟ إنك لم تتعلم كيف تستخدمه» ولكنه كان يتحدث بصوت خفيض إلى الحد الذى لا يستطيع اللقلق معه أن يسمعه .

قال اللقلق : «إن كلماتك لا تنسلنى» وترك نفسه يهبط فى الهواء أدنى قليلاً .

ومرة أخرى رفع الضبع إليه بصره قائلاً : «لقد كنت أقول : لا تقترب منى أكثر مما ينبغى ، فقد أرفع ساقى وأغطيك بسحرى ! وضحك

كان اللقلق قريباً منه بما يكفى لأن يجعله يرى أن أسنانه سمراء .

وشرع اللقلق يقول : «لابد أن ثمة سبباً ما ، رغم ذلك» . ثم بحث عن صخرة تعلو الضبع ، وحط عليها . وجلس الضبع رافعاً بصره إليه وهو يحدق . ومضى اللقلق يقول : «لماذا يكرهك الجميع ؟ لماذا يدعونك غولاً ؟ ماذا فعلت ؟» .

فأغـمض الضبع عينيـه نصف إغماضـة وقال اللقلق : «إنك سعـيد الحظ جداً . فالبـشر لا يحاولون قتلك ، لأنهم يظنونك مـقدساً . إنهم يدعونك قديساً وحكيماً . ومع ذلك فأنت لا تبدو قديساً ولا حكيماً» .

قال اللقلق مسرعاً : «ماذا تعنى ؟» .

لو أنك كنت تفهم حـقاً ، لعرفت أن السـحر حبـة تراب فى مهب الريح ، وأن لله سلطاناً على كل شئ ، ولما ساورك خوف» .

وقف اللقلق زمناً طويلاً يفكر . رفع سـاقاً وثناها أمـامه . واصطبغ المسيل باللون الأحـمر إذ هبطت الشمس من مستـقرها . وجلس الضبع بهدوء رافعاً بصره إلى اللقلق ، منتظراً منه أن يتكلم .

وأخيراً أنزل اللقلق ساقه وفتح منقاره وقال : «أتعنى أنه إذا لم يكن هناك سـحر ، فـإن الشخص الذى يرتكب الخطيـئة هو الشـخص الذى يعتقد أن ثمة سحراً ؟» .

وهنا ضحك الضبع وقال : «لم أقل شيئاً عن الخطيئة . وإنما أنت الذى قلت ، وأنت الحكيم . ليست مهمتى فى العالم هى أن أخبر أحداً ما الصواب وما الخطأ . إن الـعيش من الليل إلى الليل يكفينى . إن كل إنسان يتمنى أن يرانى ميتاً .

ومرة أخـرى رفع اللقلق ساقـه ووقف يفكر . ارتفع آخر شـعاع من ضوء النهار إلى السماء واختفى . وذابت الصخور عند جوانب المسيل فى

الظلمة . وأخيراً قال اللقلق : «لقد وهبتنى شيئاً أفكر فيه ، وهذا أمر طيب ولكن الليل قد جن الآن ، لابد لى من أن أمضى فى طريقى . ورفع جناحيه وشرع يطير - دون أن يلوى على شئ من الجلمود الذى كان واقفاً عليه . وأخذ الضبع يصغى إليه بسمعه . سمع جناحى اللقلق يضربان الهواء ببطء ، ثم سمع صوت بدن اللقلق وهو يضرب الصخرة على الجانب الآخر من المسيل ، فتسلق الصخور ووجد اللقلق ، وقال : «إن جناح قد انكسر ، كان خيراً لك أن ترحل قبل أن يختفى ضوء النهار» .

فقال اللقلق : «أجل» . وكان تعساً يشعر بالخوف .

وقال له الضبع : «تعال معى إلى بيتى . هل تستطيع السير ؟»

قال اللقلق : «أجل» وشقا طريقهما معاً فى الوادى . وسرعان ما انتهيا إلى كهف فى جانب الجبل . فدخله الضبع أولاً ونادى عليه منه . «الآن تستطيع أن تدخل رأسك . إن الكهف عال هنا» .

لم يكن ثمة سوى ظلمة بالداخل ووقف اللقلق فى مكانه ، ثم قال: «أين أنت ؟» .

وأجابه الضبع : «إنى هنا» وضحك .

وسأله اللقلق : «لماذا تضحك ؟» .

فقال الضبع : «كنت أفكر أن العالم مكان غريب . لقد دخل القديس كهفى لأنه يؤمن بالسحر» .

قال اللقلق : «لست أفهمك» .

«إنك مضطرب ، ولكنك على الأقل تستطيع الآن أن تصدق أنى لا أملك سحراً إنى لا أختلف عن أحد فى هذا العالم» .

لم يجبه اللقلق فوراً وشم رائحة الضبع الكريهة شديدة القرب منه ثم قال متنهداً : «أنت مصيب بطبيعة الحال فليس ثمة قوة تجاوز قوة الله» .

قال الضبع وهو يتنفس فى وجهه : «إنى سعيد . أخيراً أصبحت تفهم وسرعان ما أمسك بعنق اللقلق وَوَجأهُ . رفرف اللقلق وسقط على جنبه .

قال الضبع هامساً : «لقد منحنى الله ماهو خير من السحر منحنى مخاً» .

رقد اللقلق ساكناً : حاول أن يقول مرة أخرى : «ليس ثمة قوة تجاوز قوة الله» ولكن منقاره لم يعد أن انفتح بالغ الاتساع فى الظلام .

تحول عنه الضبع مبتعداً ، وقال من فوق كتفه : «ستموت فى مدة دقيقة، وبعد عشرة أيام سأعود إليك وعند ذلك ستكون جاهزاً لوجبتى» .

وبعد عشرة أيام ذهب الضبع إلى الكهف ووجد اللقلق حيث تركه . لم يكن النمل قد زحف إليه فقال : «هذا أمر طيب» . التهم منه مما أراد، ثم خرج إلى صخرة كبيرة مسطحة فوق مدخل الكهف . وهناك فى ضوء القمر وقف بعض الوقت يتقيأ .

أكل قليلاً من قـيئه وتمرغ زمناً طويلاً فى يقـينه ، وهو يحكه بفرائة عميـقاً . ثم شكر الله على أنه وهبه عينين تسـتطيعان أن تريا الوادى فى ضوء القمر ، وأنفاً يستطيع أن يتشـمم الجيفة على متن الريح . تدحرج فى القيئ مرة أخرى ولعق الصخـرة من تحته . ولبعض الوقت رقد هناك يلهث وسرعان ما نهض ومضى يظلع فى طريقه .

١٧ - الأشياء

ڤالنتاين كاتاييف

ربط الحب المشبوب بين قلبى چورچ وشوركا ، فعقدا قرانهما فى يوم من أيام شهر مايو ، صفا فيه الجو واعتدل ، وما كاد المأذون ينتهى من كلمات التهنئة المقتضبة التى أصغيا إليها بصبر نافد حتى اندفع العروسان الشابان خارجين إلى الطريق العام .

كان چورچ طويلاً نحيلاً ، ذا صدر مهزول وطبع هادى ، فنظر بطرف عينه إلى شوركا وقال «إلى أين نمضى الآن ؟» .

وكانت شوركا طويلة أيضًا ، جميلة أنيقة ، مشاعرها ملتهبة متقدة ، فزادت من التصاقها به حتى دغدغ أنفَه غُصْنُ الليلاك الذى يزين شعرها، وهمست بانفعال اتسعت له فتحتا أنفها قائلة «إلى السوق طبعًا لشراء الأشياء ! وهل هناك سوى السوق ؟» .

وقال زوجها : «تقصدين لشراء الأثاث ؟» وقد ارتسمت على شفتيه بسمة غباء ، ويده تصلح من وضع الكاسكيته على رأسه أثناء السير .

كانت الريح تهب فتثير الغبار فى السوق ، والإزارات النحيلة الملونة المعلقة فوق الدكاكين المنصوبة فى ظاهر السوق تتماوج مع هبات الهواء

الجاف ، والجرامـوفونات القديمة ينافس بعضهـا بعضًا فى الصرير الذى يعلو وسط الموسـيقى ، والشمس تسطع وتنعكـس أشعتهـا على المرايا المعلقة التى تلعب بها أيدى الريح ، وشتى البضائع وألوان السلع الجذابة ، بل وبعض المـعروضـات ذات الجمـال الأخاذ ، تحـيط بالعروسـين الشابين .

واحمر خدا شـوركا ، وتصبب العرق من جبينهـا ، وتهدّل شعرها واختلط حتى وقـع غصن الليلاك ، واتسعت حدقـتا عينيهـا واستدارتا ، وهى تضع يدها الملتهبة على كـوع چورچ ، وتدفعه دفعًا فى السوق وهى تعضد على شفتيها الغليظتين المتشققتين .

وقالت بأنـفاس محـتبـسة «اللحاف أولاً . . لـحاف من ريش الأوز أولاً!» .

كانت صرخات الباعة تصم الآذان ، فأسـرعا بشراء لحافين مربّعين ، وكان كل لحاف ثقيلاً غليظًا يتكون من قطع شتى من الأنسجة المتباينة ، أعرض ممـا ينبغى وأقصر مـما ينبغى ، لون أحدهمـا أحمر طوبى ، والآخر بنفسجى داكن .

وغمغمت شوركا قائلة «والآن إلى الأحذية ذات الرقبة» ، وقد اقترب وجهـها من وجه چورچ حتى غـمرته أنفاسهـا الحارة ، «ولابد أن تكون البطانة حمراء ، وعليها حروف مميزة حتى لا يسرقها أحد» .

واشـتريـا الأحذية ، زوج من الأحـذية الحـريمى وزوج رجـالى . وكانت البطانة والحروف قرمزية ، ولمعت عينا شوركا وبرقتا وهى تقول «الفُوَطْ ! وعليها زخـارف من صور الديوك . .» وكانت أنفاسـها تتلاحق كالأنـين وهى تضع رأسهـا الملتهب على كـتف زوجهـا ، وبعـد شراء المناشف ذات الديوك المصورة ، اشتـريا أربع بطانيات ، وساعة بمنبّه ، وقطعة من القماش المـخملى ، ومرآة ، وسجادة صغيرة مـزخرفة بصورة النمر ، وكرسيين جميلين بهما مسـامير نحاسية ، وعدة كرات من خيوط الصوف .

وكانا يريدان أيضًا شـراء سرير كبيـر له مقابض من مـعدن النيكل وبعض الأشياء الأخـرى ، ولكن المال كان قد نفـد ، فعادا إلى المنزل يحمـلان ما اقتنـيا من أشيـاء ، فكان جورج يحمل الكرسـيين ، وعلى صدره اللحـافان المطويان يمـسكهما بذقنه ، وكـان العرق قد بلل شـعره وألصقـه بجبهـته البيـضاء ، وقطراته تنساب على خـديه الناحلين اللذين تدفقت الدماء فيهما ، وارتسمت الظلال الزرقاء تحت عينيه ، وفمه نصف مفتوح، تبدو فيه الأسنان غير السليمة ، ويوشك أن يسيل منه الروال .

وعندما عادا إلى مسكنهما البارد ، خلع الكاسكيته وألقاها معبرًا عن إرتياحه منهـا ثم سعل ، ووضعت شوركـا الأشياء على سريره الصـغير وألقت نظرة على الغرفـة ، وبنزوة من نزوات الحياء التى تنتاب الفـتيات لكمته لكمة حب بقـبضتها الضخمـة الحمراء فى صدره - بين الضلوع - قائلة :

«اسمع ! لا أريدك أن تسعل !» وكانت تتظاهر بنبرة الصرامة والقسوة «وإلا أصبت بالسل وهلكت ، وأنت الآن مسئول عنى . . وأنا أعنى هذا» ومن ثم وضعت خدها الأحمر على كتفه النحيل .

وجاء ضيوف حفل الزفاف فى المساء ، وبدأت الوليمة ، فتأمل الضيوف الأشياء الجديدة بإعجاب وإكبار ، وأثنوا عليها ، وشربوا ما اقتضته مراسم الحفل من الفودكا ، زجاجتين كاملتين ، والتهموا الفطائر، ورقصوا على أنغام آلة الهارمونيوم ، ثم ما لبثوا أن رحلوا ، بعد أن سار كل شىء وفقًا لما ينبغى له أن يسير ، بل إن الجيران أنفسهم أبدوا دهشتهم لما اتسم به حفل الزفاف من هدوء واحتشام ، دون إفراط أو مغالاة فى شىء .

وبعد رحيل الضيوف عادت شوركا وچورچ من جديد إلى تأمل المشتروات وإبداء الإعجاب بها ، فقامت شوركا بتغطية الكرسيين بأوراق الصحف ، بعناية ، ووضعت الأشياء الأخرى فى صندوق كبير أغلقته بإحكام ، بما فى ذلك اللحافان ، بعد أن وضعت الحذائين بالحروف المنقوشة فوق كل شىء .

وفى منتصف الليل استيقظت شوركا مهتاجة قلقة وأيقظت زوجها صائحة «هل تسمعنى يا چورچ ؟ اسمع يا حبيبى چورچ» ثم همست بحرارة قائلة «أفق يا چورچ ! لقد أخطأنا عندما لم نشتر اللحاف الأصفر! اللحاف الأصفر الفاقع أظرف بكثير ، وأنا واثقة أننا كان يجب أن

نشتريه ! وبطانة الأحذية غير مناسبة هى الأخرى . لم نكن نتصور .. أقصد كان ينبغى أن نختار ذوات البطانة الرمادية . إنها أجمل كثيراً من البطانة الحمراء . والسرير ذو المقابض .. إننا لم نفكر فيه التفكير اللازم».

وفى الصباح ، وبعد أن أسرعت شوركا بتجهيز چورچ للذهاب إلى عمله ، أهرعت عائدة إلى المطبخ لمناقشة انطباعاتها عن الزفاف مع الجيران، فبدأت بالحديث - من باب مراعاة الأصول - عن ضعف صحة زوجها لمدة خمس دقائق ، ثم دعت النسوة إلى دخول غرفتها حيث فتحت الصندوق وبدأت فى عرض محتوياته . وأخرجت اللحافين ، وتنهدت تنهيدة سمعتها الحاضرات وهى تقول «لقد أخطأنا بعدم شراء اللحاف ذى اللون الأصفر الفاقع .. لم يجل بخاطرنا أن نشتريه .. آه ! لم نلق بالاً إلى -» ودارت عيناها وغامتا .

وأثنى الجيران على الأشياء ، وقالت زوجة الأستاذ ، وهى عجوز طيبة القلب ، بعد قليل : «لا بأس بذلك كله ، ولكن يبدو أن زوجك مصاب بسعال خطير . إننا نسمع كل شىء من خلال هذا الحائط الرقيق. لابد أن تولى هذا الموضوع اهتمامك وإلا ، كما تعرفين ...».

وقالت شوركا بغلظة مقصودة «لا أهمية لذلك ، فلن يموت بسببه ! وحتى لو مات فلن يضيره ذلك وسوف أجد رجلاً آخر» .

ولكن قلبها ارتعد فجأة ، وقالت لنفسها «سأقوم بإعداد الهامبورجر له، إذ لابد له أن يأكل ويشبع !» .

ولاقى الزوجان الآمرّين فى العيش حتى حان موعد قبض المرتب التالى ، ولكنه ما إن جاء المال حتى اتجها فوراً إلى السوق ، واشتريا اللحاف ذا اللون الأصفر الفاقع ، وبعض اللوازم التى لا غنى عنها للمنزل، إلى جانب بعض الأشياء البالغة الجمال : ساعة دقاقة ، وقطعة من فراء القندس ، ومنضدة صغيرة معدة لوضع إناء الزهور بأحدث أساليب الموضة ، وأحذية ذوات رقبة وبطانة رمادية ، وستة ياردات من الحرير الناعم ، وتمثال رائع عجيب الشأن لكلب مزين ببقع مختلفة ألوانها ، ومئزر من الصوف ، وصندوق صغير يضرب لونه إلى الخضرة، ويصدر أصواتًا موسيقية عند فتحه .

وعندما عادا إلى المنزل وضعت شوركا هذه الأشياء بنظام محكم فى الصندوق الكبير ، وجعلت القفل يعزف سُلّمًا موسيقيًا .

واستيقظت فى منتصف الليل ، وأسندت خدها الملتهب إلى جبهة زوجها الباردة التى يتفصد منها العرق وقالت له بهدوء «چورچ ! هل أنت نائم ؟ لا تنم ! اسمعنى يا چورچ يا حبيبى ! كان هناك لحاف أزرق ! أنا حزينة لعدم شرائه ! خسارة ! إنه لحاف لطيف لطيف . . جداً . يبرق لونه بعض الشىء . . لم نتصور . .» .

وذات يوم فى منتصف الصيف دخلت شوركا إلى المطبخ فى مرح وسرور وهى تقول «حصل زوجى على عطلة ! حصل كل من زملائه على أسبوعين ولكنه حصل على شهر ونصف .. صدقونى ! وهى عطلة بمرتب كامل ! سوف نذهب فوراً لشراء السرير ذى القوائم الحديدية والمقابض .. هذا مؤكد !» .

وقالت العجوز ، زوجة الأستاذ ، بنبرات حاسمة «نصيحتى هى أن تتخذى ترتيبات إدخاله إلى مصحة جيدة» وهى تضع المصفى المليئة بالبطاطس المسلوقة الساخنة تحت صنبور الماء ، وأضافت قائلة «وإلا - كما تعرفين - قد يفوت موعد العلاج» .

وردت شوركا بلهجة غاضبة «لن يحدث له شىء !» وقد وضعت ذراعيها فى وسطها بهيئة التحدى، وأردفت تقول «سأرعاه هنا خيراً من أى مصحة ، سأقلى له شرائح الهامبورجر وأدعه يأكل ما يشاء حتى يشبع !» .

وعاد الزوجان فى المساء من السوق بعربة يد صغيرة حافلة بالأشياء، وكانت شوركا تسير خلف العربة وتتطلع ببصرها إليها كأنما سحرها انعكاس وجهها الذى تصاعد الدم إليه فى النيكل الذى يكسو حديد السرير . أما چورچ فكان يزفر زفرات ثقيلة ولا يكاد يقوى على دفع العربة ، وكان يحمل على صدره اللحاف المطوى ذا اللون الأزرق السماوى، ويمسكه بذقنه المدببة ، وكان لا يتوقف عن السعال . وانحدرت قطرة داكنة من قطرات العرق على فوده الغائر .

واستيقظت شـوركا أثناء الليل إذ أقض التفكير العميق مضـجعها ، وما نهش ذهنهـا من أفكار ، فشـرعت تهمس بسـرعة «حبـيبى چورچ ! مازال هناك لحاف رمادى ! هل تسمعنى ؟ يحزننى أننا لم نحصل عليه . . خسارة ! ما ألطفه وأجـمله ! رمادى رمادى ، ولكن البطانة ليست رمادية بل وردية اللون . . ما أرقه وأظرفه من لحاف !» .

أما آخر مرة شوهد فيـها چورچ فكانت فى صباح يوم من أواخر أيام الخريف ، وكان يسيـر بصعوبة فى الشارع الجانبى الصـغير ، وقد غطى أنفه الطويل الشفاف الذى يكاد يشبه الشمع بياقة سترته الجلدية التي أكل عليـها الدهر وشـرب ، وكـانت ركبـتاه الـحادتان بارزتين ، وسـرواله الفضفاض يخفق حول رجليه الهزيلتـين ، وكانت الكاسكيته الصغيرة قد تدحرجت إلى مؤخـرة رأسه ، وتدلى شعره الطويل على جبـهته ، وبدا مبللاً وفاحمًا .

كان يتعـثر فى سيره ، ولكنه كان يحـرص على تجنب الخوض فى برك الماء حتى لا يبتل حذاؤه النحيل ، وعلى شفـتيه الشاحبتين تتراقص بسمة واهنة ، بسمة سعادة تكاد تكون بسمة قناعة .

وعندما وصل إلى المنزل أرغم على الرقاد فى السرير ، وجاء طبيب المنطقة وأسرعت شوركا إلى مكتب التأمينات الاجـتماعية للحصول على بدل العـلاج ، واضطرت إلى الذهاب إلى السـوق وحـدها هذه المـرة ، وعادت تحمل اللحاف الرمادى ، ثم وضعته فى الصندوق .

وسرعان ما ساءت حالة چورچ ، وبدأت بشائر الثلج ذلك الشتاء ، وكـان ينصـهر عنـد الوصول إلى الأرض ، واكـتـسى الجـو بلون أزرق ضبابى، وتهامس الأستاذ مع زوجته ، وسرعان ما ظهر طبيب آخر ، قام بفـحص المـريض ثم دخل إلى المطبخ ليـغـسل يديه بصـابون مطهّر . وكانت شوركا تقف وقد بللت الدموع وجهها وسط سحابة من الدخان ، إذ كانت تقلى شرائح ضخمة من الهامبرجر مع الثوم على الموقد .

وصاحت زوجـة الأستـاذ فى دهشة قائلة «هل أنت مـخبـولة ؟ ماذا تفـعلين ؟ سـوف تقـتلـينه ! هل تظنين أنه يسـتـطيع أن يأكل شـرائح الهامبورجر بالثوم ؟» .

وقال الطبيب بلهجة جافة «نعم !» ، وأخذ ينفض الماء عن أصابعه فى الحوض ثم أضاف قائلاً «له أن يأكل ما يشاء الآن» .

وصرخـت شوركا قـائلاً : «وماذا يضـيره إن أكل هذه الشـرائح ؟» وأخذت تمسح وجهها بكمها وهى تقول «لن يحدث له شىء» .

وفى المساء جـاء مفتش الصّحة مـرتديًا الأوفرول القطنى الأبيض ، وجعل يرش غـرف المنزل المشتركـة بالمواد الكيميـاوية المطهرة ، التى فاحت رائحتها فى الممرات والدهاليـز واستيقظت شوركا أثناء الليل وهى تشعر بحزن لا تفسير له يمزق نيـاط قلبها . وهمست بصبر نافد «چورچ ! اسمعنى يا چورچ الحبيب . . استيقظ ! آمرك يا چورچ» .

ولكن چورچ لم يرد . كـان بارداً . وعندها تركت السريـر وسارت متثاقلة حافية القدمين فى الممـر ، وكانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحًا ولكن أحداً من السكان لم يستطع النوم ، فأهرعت إلى باب شقة الأستاذ وإنهارت وهـى تصرخ فى فزع «لقـد راح ! راح ! انتهى ! ياربـى ! لقد مات ! چورچ ! آه يا حبيبى چورچ !» .

وشرعت تولول ، فـأطل الجيران من أبوابهم ، وكـانت انعكاسات نجوم الشتـاء الزرقاء تتلألأ على الصقيع الذى يكسـو الأرض بغلالة صلبة خلف النوافذ المظلمة .

وفى الصباح جاءت القطة الأليفة فوقفت عند الباب المفـتوح لغرفة شوركـا ، ونظرت إلى داخل الغرفـة ، ثم انتصب شعـر فرائها فـجأة ، وكانت شوركا تجـلس فى وسط الغرفة والدموع تغمر وجـهها ، وكانت تحادث الجيران برنة غضب كأنما لحقت بها إهانة ما :

«وكنت أقول له املأ مـعدتك بشرائح الهامبورجر ! لـكنه رفضها ! انظروا كم بقى منهـا ! ماذا سـأفعل بهـا ؟ ولمن تخليت عنى يا چورچ الشقى !؟ لقد تركنى ولم يأخذنى معه ، ولم يرد أن يأكل شرائحى ! آه يا چورچ ! يا حبيبى !» .

وبعـد ثلاثة أيام جاءت عـربة المـوتى التى يجرها حـصان رمـادى فوقفت خارج المنزل ، وفُتحت البوابة الرئيسـية على مصراعيها ، فدخل

الهواء الزمهرير فى شتى أرجاء المبنى ، وشاعت رائحة زيت الصنوبر ، وأخرج چورچ إلى مثواه الأخير .

وفى مأدبة المأتم كانت شوركا مرحة إلى حد غير عادى ، وقبل أن تقرب أى طعام شربت نصف كوب من براندى الذرة ، فاحمر لون بشرتها ، وبدأت عيناها تذرف الدموع ، فضربت الأرض بقدمها وقالت فى صوت متهدج :

«من هناك ؟ ادخلوا جميعًا وامرحوا . . أقصد من يريد أن يدخل . . سوف أسمح للجميع بالدخول ما عدا چورچ . . لن أسمح له بالدخول ! لقد رفض أن يأكل الشرائح التى أعددتها له ، بل رفضها قطعًا !» .

ثم سقطت بقوة على الصندوق الجديد وبدأت تضرب القفل الموسيقى برأسها .

وعاد كل شىء ، بعد ذلك ، إلى مجراه الطبيعى فى المسكن ، فساده النظام والأدب ، وعادت شوركا إلى العمل خادمة ، وجاء رجال كثيرون أثناء الشتاء يطلبون يدها ، ولكنها رفضت الزواج من أيهم ، إذ كانت تنتظر رجلاً هادئًا طيب القلب ، وكان هؤلاء جميعًا رجالا جسورين اجتذبهم ما جمعته من أشياء .

وإزداد نحولها كثيرًا فى أواخر الشتاء ، واعتادت إرتداء فستان من الصوف الأسود زاد من حسن مظهرها . وكان فى الجراج الملحق بفناء

المبنى سائق خصوصى اسمه إيفان ، يتسم بالهدوء والطيبة والدماثة ، وكانت شوركا قد شغفته حبًا ، ثم لم تلبث أن بادلته حبه عندما حل الربيع .

كان الجو صحواً ، وما كاد مساعد المأذون ينتهى من كلمات التهنئة المقتضبة التى أصغيا إليها بصبر نافد ، حتى انطلق العروسان الشابان من المكتب إلى الطريق العام .

وتساءل الشاب إيفان فى خجل وهو يخالس شوركا النظر «ترى إلى أين نمضى الآن ؟» .

وزادت شوركا من إلتصاقها به ، ودغدغت أذنه الحمراء بغصن الليلاك القاهر ، وهمست بانفعال اتسعت له فتحتا أنفها قائلة :

«إلى السوق ! لشراء الأشياء ! وهل هناك سوى السوق ؟» . وفجأة بدت عيناها كبيرة ومستديرة .

١٨ - الحافلة الليلية إلى أتلانتا

برندان جيل

ما أن دخلت الفتاة الحافلة حتى ود هارى« لو جلست إلى جواره . كان ثمة مقعدان آخران خاليان ، يجاور أحدهما رجلاً عجوزاً كان قد استغرق فى النوم ، فعلاً ،بصوت عال ودون أناقة ، وخيط أصفر من التبغ يتدفق من شفتيه . ويجاور الآخر امرأة فى منتصف العمر ، كان طفلها -الحائر بين الرضاعة والبكاء - يحمل على ذقنه بقعة من اللبن تشبه، على نحو غريب ، تلك التى تميز الرجل العجوز . حدق هارى فى الفتاة ، إذ راحت تشق طريقها عبر الممر ، وهو يركز بصره على وجهها الهادئ ، ويكرر لنفسه : «أجلسى هنا . أجلسى هنا» . ولم يندهش عندما جلست بجواره ، وإنما شعر براحة غريبة . كان قد ابتاع عدة مجلات من المحطة الدميمة ، وهو ينظر وصول الحافلة من جاكسون . وقد أمسك بها ، على شكل مروحة ، إزاء الفتاة قائلاً :

– أتودين أن تلقى نظرة على إحداها ؟»

فقالت دون أن تنظر إليه : «لا أظن ، شكراً» .

فتظاهر بالنظر من النافذة إلى الظلمة المتراكمة، ولكنه احتفظ فى ركن من عينه بصورة يدى الفتاة ، وقد انطوتا بأناقة على حجرها . وقال :

– «لقد تأخرت الحافلة ، أليس كذلك ؟» .

– «إنها تتأخر دائماً تقريباً» .

– «أتستقلينها كثيراً ؟» .

– «كلا» .

وتساءل هارى عما إذا كانت أصول اللياقة فى هذه المناسبة تتطلب منه أن يسرّ إليها بالمزيد . وقال : «إنى ذاهب إلى أتلانتا . ثم علىّ أن آخذ الحافلة إلى سبارتنبرج . لقد انتهت إجازتى ، والسبيل الوحيد لكى أعود إلى المعسكر فى الوقت المحدد هو أن أقفز ما بين حافلتين . لقد كنت آخذ القطارات قبل الآن ، ولكن علىّ هذه المرة أن أقفز بين حافلتين» . وظلت الفتاة صامتة ، لا تتحول عنه ولا يصدر عنها ما يدل على أنها سمعته يتكلم . وسألها هارى : «لا أظن أنك ذاهبة حتى أتلانتا ؟» .

– «لا ، لا أظن، إنى ذاهبة إلى المدرسة – إلى شئ شبيه بالمدرسة».

استدار سائق الحافلة – وهو شاب بدين أشقر الشعر – فى مقعده ، وأدار الأنوار الأمامية . وانتظر هارى إلى أن هدأت أصوات السعال الأولى للآلة على شكل حلبة ثابتة ، ثم قال :

- إنى لم أذهب إلى هذه البلدة من قبل . أتعيشين هنا ؟» .

- نعم .

- «حسناً . يخيل إلىّ أنهـا ما كانت لتكون سيئة ، لو كـان المرء قد نشأ فيـها . تعرفين ما أعنيـه ؟ لست أستطيع أن أهضم هذه البلدان الجنوبيـة ، فـهى كلهـا مـتـشـابهـة فى نظرى» . وتردد هارى : «خبرنى. ألم أرك فى المحطة ؟ ألم تكونى تودعين أهلك ؟» .

فأومأت الفتاة برأسها .

كـانت أم الفتـاة تبكى ، وأبوها ينقل ثـقله من قدم إلى أخـرى ، ويدير قبعة سوداء ناعمة بين يديـه ، وكان هارى قد نسى المشهد ، كلية ، قبل أن يتـحدث عنه . كـان ينتظر فى الصف ، كى يبتـاع تذكرة إلى أتلانتا ، ولم يكن قد أولى الفتاة وأباها وأمـها من الاهتمام قدر ما أولاه إلى الزنوج المتجمعين فى قسم الزنوج من المحطة ، وإلى الوليد الرضيع الذى لاح أنه ليس بمستطاعه أن يبقى فمه مطبقاً على ثدى أمه : وقال : «لابد أنك مسافرة ، مدة طويلة» .

فقالت الفتاة : «نعم» ، واستدارت نحوه ، وعيناها قريبتان من عينيه إلى الحد الذى أمكنه مـعه أن يرى أين كانت نقط صـغيرة من الأصـفر والأخضر تتناثر على حدقتيهما الزرقاوين . وقالت : «كأنى هاربة . إنى ذاهبة إلى جورجـيا كى أدرس التمريض . ولكنك لو سمـعت ماما وبابا

يتحدثان ، لظننت أنى مسافـرة إلى أطراف الأرض . هذا لأنهما متعودان على أن أكون بجوارهما» .

فقال هارى : «أجل ، أعرف هذا . فوالداى من نفس النوع» .

«ولكنى كنت أرغب دائماً فى أن أكون نافعة لأحد ، خاصة الآن مع الحرب وبعدها ، عندما يبـدأ الجرحى فى العودة إلى الوطن» . وعضت شفتيها «أظن أنه لا يجمل لى أن أحدثك على هذا النحو» . قالتها وهى تتـحول جـانباً : «أيـمكننى أن ألقى نظرة على إحـدى مجـلاتك ، لو سمحت ؟» .

«بالتأكيد . لقد طلبت إليك ذلك . أما فعلت ؟» .

وفكر هارى قائلاً : إنها ليست سـوى طفلة ، وأراهن أنها تتخيلنى ذئباً لا يكف ولهـذا فهى خائفة من التحـدث إلىّ . بحق الشيطان ، لن أدع ذلك يجرح شعورى . ومـنحته فكرة كونه ذئباً سروراً غـير متوقع ، فأمال ذقنه وأزاح خصلة من الشعر بيمناه .

أختـارت الفتاة مـجلة على غلافهـا اللامع صورة فوتوغـرافية لبـيتى جرابل ، تبين أساساً أسنانها وصدراها وسـاقيها . وشرعت الفتاة تقلب الصفحـات بإبهامها ولكن كـان من الواضح لهارى أنها لم تقرأ شـيئاً . دارت الحافلة مـبتعدة عن الـمنطقة الملطخة والمـوحلة ، وراء المحطة ، وسارت فى شارع البلـدة الرئيسى . كانت الأنوار الكهربائيـة أو مصابيح

الكيروسين قد أضيئت فى أغلب الدور ، ولكن أحداً لم يأبه ، بعد ، لأن يسدل الستائر على النوافذ . وفكر هارى قائلاً : ربما كان هذا هو نوع البلدة التى لا يأبه فيها أحد ، حتى فى الشتاء ، لإسدال الستائر . وكان بوسعه أن ينظر إلى داخل الغرف الصغيرة العارية ، ويرى الرجال والنساء متحلقين حول موائد مطابخهم أو غرف الطعام ، يأكلون ويشربون أو يتحدثون فحسب . وقال : «غريب أن يفكر المرء فى كل هؤلاء الناس ، لطفاء ناعمين بالدفء فى دورهم ، ونحن نركب مبتعدين عنهم فى حافلة قديمة مرتجة ، لا نعود» .

فقالت الفتاة بحدة : «لماذا قلت ذلك ؟ ما الذى تعنيه ؟» .

«لا أعنى إلا أنى لن أعود . هذه أول زيارة لى لمسيسبى ، ولكنى أظن أنه لن يكون ثمة ما يدعونى إلى أن أزورها مرة أخرى» .

وكأنما كان جسدها يبذل جهداً ضد إرادتها ، فقد مالت الفتاة إلى الأمام وجانباً فوق ركبتى هارى ، وهى تحدق من النافذة . كانت شفتاها منفرجتين ، ويداها على الصليب الذهبى الصغير المدلى على فتحة ثوبها على شكل ٧ . ولاحظ هارى أن رائحة جسدها لم تكن رائحة عطر وإنما صابون ، ما هو واضح . وقالت : «سنمر ببيتى الآن . أقول : سنمر ببيتى !» .

فتثاقلت الحافلة درجة بسيطة ، ثم اهتزت شرقاً تاركة البلدة . وفى الضواحى ، حيث طوار أسفلتى محطم يصل إلى الحقول التى فى لون الآجر الأحمر ، أشارت الفتاة إلى كوخ نصف مختف وراء صف من الأشجار . وقالت : «ها هو ذا . ذاك بيتى» .

فقال هارى : «لست أرى أى أنوار» .

فهزت الفتاة رأسها : «لابد أنهما فى البلدة ، وذاهبان إلي الخيالة . إنهما لم يكونا عائدين إلى البيت للعشاء الليلة ، لقد قالت أمى إنها لا تتحمل العودة إلى البيت للعشاء الليلة» .

وإذ جن الظلام ، صار الهواء داخل الحافلة بارداً . وأدار السائق الشاب البدين سخاناً لم يصدر عنه إلا رائحة جازولين حادة . وكان هارى يتوقع أن تكون الحافلة كالقطار - حسنة الإضاءة - حتى يمكنه أن يقرأ مجلاته ، غير أنه فيما عدا دخول بلدة ، أو التوقف عند محطة بترول على شكل كوخ ، على طول الطريق ، كانت الأنوار محتجبة . وفى ذلك الجزء من الحافلة ، حيث كان هارى والفتاة يجلسان ، لم يكن هنا سوى اللمعة الضعيفة ، منعكسة عن السقف ، للنورين الصغيرين على لوحة الأدوات كان البرد والظلمة قد قربا هارى والفتاة فى مقاعدهما فاقتربا فى الحق إلى الحد الذى تضامت معه أذرعهما وركبهما . وعندما نقلت الفتاة رجليها ، غير هارى وضعه كى يريحها . لم تكن الفتاة قد تحدثت، لمدة ساعة تقريباً . وعلى قدر علم هارى ، ربما كانت نائمة .

ولكنه عندما كان - بين الحين والحين - يتحول ليدرس وجهها ، كانت تفتح عينيها وتحدق أمامها فى الظلام .

ظل الرجل العجوز - الذى نام عند دخول الحافلة المحطة - يشخر ويسعل بين الظلال . بينما الوليد الرضيع - بدلاً من البكاء - يخرج صوت مص مستمر غير راض ، بشفتيه المذمومتين ، وكان أثنان صعدا إلى الحافلة أثناء وقوفها بمحطة سابقة قد أخلت كل منهم إلى حضن صاحبه فى المقعدين وراء هارى والفتاة . وكل دقائق قليلة ، يتمتم أحدهما بكلمة أو كلمتين ، مغفياً ، ثم ينتهى الكلام بقبلة . ولكن هارى لم يتمكن من أن يعرف ما إذا كانت الفتاة إلى جواره منتبهة إلى الرجل العجوز ، أو الوليد ، أو حتى هذين الاثنين . وإذ تحركت الحافلة متثاقلة ، فى الليل ، وأنوارها الأمامية تطوى الأميال المنبسطة التى تمثل مسيسبى وألاباما ثم جورجيا بعد قليل ، ازداد البرد ، وانزلق هارى فى مقعده أسفل فأسفل . ظل جسده متحولاً عن النافذة ، ووجهه نحو الفتاة، بينما هى - إما نائمة أو نصف صاحية - حولت وجهها إليه أيضا . وذات مرة سقطت سترتها عن كتفيها ، فمد هارى يده ، وأحاط بها ذقنها وذلك الخط الناعم من شعرها إزاء وجنتيها . وهمست له بشئ ، ولكنه لم يتمكن من سماعه ، فخمن أنها تحلم .

لم يكد ينام حتى أيقظه صوت الحافلة وهى تتوقف ، أو غياب الصوت بعد أن توقفت الحافلة . ورأى أنهما قد وصلا إلى محطة

أخرى، جناح محطة صغير ، ألحقت به حافلة طعام . كانت أشجار الصنوبر تمتد على كلا جانبى الطريق ، والسماء من فوقهما بلا نجوم . شعر هارى بتصلب ، وبأنه قلق فجأة وعلى نحو مكدر ، كأنه بحاجة إلى مسيرة عشرة أو اثنى عشر ميلا لكى يزيل عن رجليه تقلصهما . ورأى على النور الوامض للعلامة التى تعلو حافلة الطعام - أن الفتاة مستيقظة . فقال : «ما رأيك فى أن نخرج ونتناول فنجاناً من القهوة ؟» .

ولدهشته قالت الفتاة : «لا مانع» .

وإذ نهضا قائمين قالت المرأة التى فى المقعد وراءهما «إدى ، نشدتك الله ! بوسع هؤلاء الناس أن يرونا» . فسب الرجل ، بحدة ، تجاه ذلك ، وقهقهت المرأة . وشعر هارى بحمرة الخجل ، إذ سار فى الممشى نحو الباب . تبع الفتاة عبر الطين الخشن لجانب الطريق وداخل حافلة الطعام . لم يكن هناك ركاب آخرون قد عنوا بالنزول من الحافلة ، وكانت حافلة الطعام فارغة ، باستثناء الساقى ، وهو عجوز بلا أسنان ، وسائق الحافلة . كان السائق يحتسى فنجاناً من القهوة . وعندما دخل هارى والفتاة كشر لهما عن أنيابه فى المرآة المركبة وراء النضد ، دون أن يرفع فمه عن حافة الفنجان . وسألهما : «كيف حالكما يا أولاد ؟» .

وكان هارى قد أجاب : «الحمد لله» قبل أن يخمن ما يدور برأس السائق الشاب البدين . ثم قال للسائق بسرعة : فنجانين من القهوة ، من فضلك ، وبعض هذه الكعكات المحلاة والمقلية بالدهن» .

فقال العجوز ، هو يسفر عن لثته «نعم ياسيدى» .

وقالت الفتاة : «لا حاجة بى إلى الكعكات . أشكرك» .

ورأى هارى أنها راضية لأنه طلبها لها ، فقال : «بل تأخذينها بالتأكيد . اثنتان من هذه الكعكات اللطيفة الكبيرة المحلاة بالسكر» . وابتسمت الفتاة لأول مرة ، فحنى هارى رأسه بحماقة وسعادة ، على سبيل الإجابة . وفكر أنه لم يسبق له قط أن رأى مثل هذه الابتسامة الحلوة . كانت أسنانها صغيرة مستوية . وإذ رفعت ابتسامتها جانبى فمها، لاحت وجنتاها أكثر استدارة واصطباغاً باللون الوردى مما كانت عليه حقيقة .

وقال العجوز : «هاك . الكعكات والقهوة» .

• وإذ راحا يأكلان كعكاتهما - التى لم تكن طازجة - ويحتسيان قهوتهما الساخنة - وإن تكن مرة - أخذ هارى يدرس وجه الفتاة فى المرآة وراء الغلة المكدسة وزجاجات الدكتور بابير . كانت تقلقه فكرة كاد يستحيل صياغتها فى كلمات ، ولكنه كان يعرف أنه إذا مكث أطول مما ينبغى ، فسيدعوه السائق إلى الحافلة . وكان يريد أن يقول : «من الغريب أننا هنا على هذا النحو . كأننا زوج وزوجة . نحن لم ير حتى أحدنا الآخر من قبل !» . ومن المحتمل أن يكون رأيه قد استقر على أن الفتاة خليقة أن تكف عن الابتسام ، لو أنه قال ذلك . ستخشى - مرة

أخرى - ألا يكون سوى ذئب . وأخيراً ، إذ غامر بالافصاح عن جزء من أفكاره قال : «من الغريب أننا هنا على هذا النحو» .

ولبهجة هارى قالت الفتاة : «كأننا . . **كأننا يعرف أحدنا الآخر منذ** زمن طويل» .

«ونحن حتى لم ير أحدنا الآخر من قبل» .

فأومأت الفتاة برأسها : «وأظن أننا لن يرى **أحدنا الآخر مرة أخرى** قط» .

فقال هارى : «كلا ، بل سنفعل ، ينبغى أن نفعل . . عليك أن تكتبى لى عندما أصل المعسكر ، وعندما أحصل على إجازة مرة أخرى ، فربما . . .» .

فقاطعته الفتاة : «لن نفعل ، وليس بمقدورنا أن نتكاتب . فأنت لا تعرف أين ستكون ، ولا تعرف ما قد يحدث . بل إننا لا يعرف أحدنا اسم صاحبه» .

«هذه مسألة سهلة» .

فانخفض صوت الفتاة حتى أصبح همساً «لا ينبغى أن نعرفها . إذ لم يرد لنا أن يميل أحدنا إلى الآخر إلى هذه الدرجة . وأن نلتقى على هذا النحو» .

فبدأ هارى يتلعثم ، كما كان يفعل دائماً حين ينفعل وقال : «لست أفـهم . ماذا تظنينى ؟ ذئب ؟ وهـل هذا سبب كل كـلامك هذا ؟ أأنت غاضبة منى لأنك تظنين أنى أحاول اصطيادك ؟» .

فقالت الفتاة : «أوه كلا ، كـلا بطبيعة الحال . أوه ، كلا . ليس الأمر كذلك» .

ولاحت خائفة ومرتبكة من رد الفعل الذى اثارته فى هارى ، وارتفع الصليب الذهبى الصـغيـر وتوهج فى الضـياء . ومـدت يدها كى تلمس كمـه، ولكن السائق الشاب البـدين دار فى تلك اللحظة - فى مقـعده ، وسار بطل حافلة الطعام ، كى يتـحدث إليهما : «هى ، ياطائرى الحب الصغـيرين !» هكذا قـال . «علينا أن ننقل هذا الكوم القديـم من الخردة إلى أتلانتا فى وقت ما مـن هذا الأسبوع كما تعـرفان ! بديهى أنكما إذا فضلتما أن تبقيـا هنا فى هذا العش الصغير الدافئ ، فأظن أن بوسع بوب أن يجد لكما مكاناً للنوم . أليس كذلك يابوب ؟» .

فتجمد وجه الرجل العجوز وقـال : «هذه حافلة طعام محترمة ، ولا مكان فيها للنوم» .

فضحك السـائق الشاب البدين وضرب النضد براحـته : «هذا حسن يابوب . قل لهما هذا . حسناً ، هيا بنا ياطائرى الحب . لستما أول من يتعين عليهما أن يقنعا بحافلة» .

وشعر هارى بالرغبة فى أن يسدد قبضته إلى وجه السائق الناعم الوردى ، ولكن بعد فوات الأوان ، فدائماً لم يكن ثمة جدوى تقريباً من إخراس امرئ بصكه بعد حدوث الضرر . وهمست له الفتاة : «لا تهتم ، أرجوك لا تهتم» . وتبعت السائق خارجة من حافلة الطعام ، وصاعدة الدرجتين العاليتين إلى الحافلة . بينما دفع هارى للرجل العجوز ثمن القهوة والكعكات . وعندما صفق السائق باب الحافلة بشدة وراء هارى ، وتمتم له بشئ ، لم يأبه هارى بأن يسأله عما قاله ، أو حتى أن يقول له: أذهب إلى الجحيم. كان كل ما يريده أن يتحدث إلى الفتاة .

ولما كانت الفتاة ترقد مكومة على المقعد الداخلى ، فقد تعين على هارى أن يتحرك من فوقها لكى يصل إلى مقعد النافذة . ولمس إحدى يديها ، إذ كان يفعل ذلك ، فوجدها باردة . ولاءم بين نفسه ووضعها - كملعقتين ، هكذا فكرة وهو يسترجع عبارة كان هو وأخوه قد استخدماها، وهما أطفال . وسحب معطف الجيش الثقيل على كليهما . رقدا وجهاً لوجه فى الظلام ، صامتين ، بينما الحافلة تكتسب سرعة . وذات مرة ، مرت عربة بالحافلة ، وعلى لمعة أنوارها الأمامية رأى هارى الفتاة تحدق فيه . وقال : «لم أكن متأكداً من أنك يقظة» .

«ليس بمستطاعى أن أنام» .

وتساءل هارى عما إذا كان المراد بها لومه . وقال : «آسف فقد انفعلت» .

«إنها غلطتى» .

«كلا . لقد كانت غلطتى» .

وشعر هارى أنه نصف دائخ بالسرور من دفئهما وقرب كل منهما من صاحبه . كان يريد أن يكون كل شئ غلطته هو . وقال : «من المؤكد إنك تبدين حلوة» .

فضحكت الفتاة بنعومة : «إنك لا تستطيع حتى أن ترانى» .

«بل أستطيع . . أستطيع أن أرى بعض الشئ» . ومد هارى يده فلمس طرف أنفها بإصبعه . «أستطيع أن أرى أنفك ووجنتيك وذقنك» . ونقر على وجنتيها وذقنها والصليب الذهبى فما خط حلقها الأبيض الواهن ، «يسرنى أنك لست نائمة أو غاضبة أو أى شئ من هذا القبيل» . قالها هارى وهو يتساءل عما جعله يقول مثل هذا الهراء .

وقالت الفتاة: «ليس بمستطاعى أن أنام . مفروض أن أنزل بعد قليل» .

فشعر هارى بنبض معصميه يدق معترضاً ، وقال : «كلا ، كلا . عليك أن تظلى فى الحافلة حتى نصل إلى أتلانتا» .

فهزت رأسها وقالت : «هذا أشبه بالكتابة . علينا أن نتصرف كما لو لم نكن قد التقينا البتة» . ثم رفعت يدها ولمست جبهته وأنفه وذقنه

. وقـالت : «وأنا أيضاً أسـتطيع أن أراك قليـلاً . إنك لطيف . ولكن علىّ أن أهبط بعد قليل ، بعد قليل حقاً» .

وناداهمـا السائق عـبر الظـلام : «هى ، ياطائرى الحب . انهضـا والمعـا!» . وخشى هارى أن يوقظ السائق كل مـن فى الحافلة ، ولكن الرجل العجوز استمر يشخـر ، وظل الوليد يصدر صوت مصه الثابت . وحـتى الاثنان الجـالسان وراءه لم يتـحـركـا . «أتريدين أن أتوقف عند البوابة، أم تريدين أن تذهبى إلى البلدة ؟» .

فقالت الفـتاة رابطة الجأش : «أريدك أن تتوقف لدى البوابة . فـثمة دائماً من هو هنالك» .

فقال هارى : «لا يمكن أن تذهبى» .

«علىّ أن أذهب» .

«لا يمكن أن تذهبى» .

«أريد أن أذهب»

«خبرينى بأسمك» .

فلم تجبه الفتاة وإذا انزلقت من تحت معطفه ، وقفت فى الممشى . وحاول هارى أن ينهض بدوره ولكنها ردته برفق إلى مقعده . وهمست له «أبق فى مكانك» . ولدهشتـه شعر ، من خلال الظلال ، بدنو وجـهها

ودفء ورائحة جلدها وشعرها . وقبلت وجنته ثم بعد لحظة فمه . ودست شيئاً فى يده . وفى اللحظة التالية كانت تسير فى الممشى نحو الباب . ووسع هارى أن يسمع السائق الشاب البدين وهو يقول : «حسناً. أظن أن صديقك لا يستطيع أن يتبعك إلى هناك . وبعد ذلك . إذ أبطأت الحافلة ومشت على الحصباء الحصناء نحو جانب الطريق «حسناً ، يا أختى . انزلى» .

وضغط هارى وجهه على النافذة ، إذ انفتح باب الحافلة وأغلق . وفى موجة الأنوار الأمامية ، الأشبه بضوء القمر ، رأى عمودين حجريين عاليين ، بينهما قوس حديدى للزينة . وعلى شكل لفات حديدية داخل القوس رأى كلمات مستشفى القديسة آن» وتاريخا «١٨٩٦» . وفكر هارى: على الأقل عرفت العنوان ، وعرفت مكانها . وإذ اهتزت الحافلة راجعة إلى منتصف الطريق ، لمح هارى الفتاة تسير نحو البوابة . فدق بمفاصل أصابعه على النافذة ، وهو يشعر بجلد أصابعه بتوتر ثم يتشقق وينزف . ولكن الفتاة لم تستدر . ولم تكد تصل إلى الممشى داخل البوابة ، حتى ابتلعها الظلام .

تحسس هارى الشئ الذى اسقطته الفتاة فى يسراه . ورغم أنه لم يتمكن من رؤيته ، فقد خمن أنه الصليب الذى كانت تلبسه حول عنقها. وأداره بين أصابعه ولثمه بفمه وكان على وشك أن يضعه فى جيب صداره عندما استوقفه أما ضعيف مستميت . فنهض قائماً وسار ، دون

ثبات ، إلى الأمام . وقال له السائق «لا تخلع قميصك أيها الفتى ، فلن نصل إلى أتلانتا قبل ساعات . والحق أننا ، فى هذه العلبة الصفيح ، قد نستغرق سنوات» .

فقال هارى : «إنما أريد أن أرى شيئاً» . وإذ ولى السائق ظهره ، رفع الصليب نحو أحد الأنوار على لوحة الأدوات . وبعد لحظة تبين - بخط دقيق على ظهر الصليب - اسم فتاة . وشعر بأن عينيه تطرفان سروراً . لقد أعطته اسمها ، فى نهاية المطاف . وتظاهرت بأنه لا يجمل بهما أن يفكر أحدهما فى صاحبه مرة أخرى ، ولكنها أعطته اسمها . لابد أنها كانت تريد منه أن يكتب لها . وقال للسائق : «اسمع . هل معك قلم رصاص ؟» .

فقال السائق وهو يسحب عتباً أصفر من فوق أذنه : «بالتأكيد . ولكنك لا تستطيع أن تكتب فى هذا المركب» .

فقال هارى : «أستطيع أن أحاول» . وجثم على الدرجة العليا من الحافلة ، وظهره إزاء الباب ، وأخذ من أحد جيوبه مظروفاً ملطخاً . وسواه على ركبته ، وبالقلم الرصاص المفلول ، وهو يرتفع وينخفض دون توقع تحت أصابعه ، كتب اسم الفتاة واسم المستشفى واسم البلدة التى كانوا يقتربون منها . وعندئذ ، على نحو طفولى ، ولكن بعناية لا حد لها ، كتب «عزيزتى» .

* كتب السلسلة الأولى *

الكتاب	المولف
- عودة الوعى .	توفيق الحكيم .
- خريف الغضب .	محمد حسنين هيكل.
- سنة ثالثة سجن .	مصطفى أمين .
- الملك فاروق وعلاقته بألمانيا النازية .	وجيه عتيق .
- أعجب الرحلات فى التاريخ.	أنيس منصور .
- مواقف.	أنيس منصور .
- قوة الخفاء .	أنيس منصور .
- المختار من القصص العالمية .	مكتبة الاسرة بمصر .
- الرعاية الطبية والتأهيليلة من منظور الخدمة الاجتماعية .	عميد معهد الأسكندرية " أبراهيم عبد الهادى " .
- كتاب تاريخ موجز لزمن "من الأنفجار الكبير الى الثقوب السوداء "	ستيفن هوكنج .